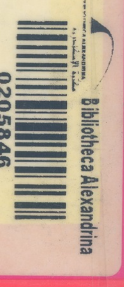
١٦٨

تاريخ المصريين

مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات

يسرى عبد الغنى





الهيئة المصرية
العامة للكتاب

تـــاريخ المصـــريين

(١٦٨)

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



مؤرخون مصريون

من عصر الموسوعات

يسري عبد الغني



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة
٢٠٠٠

الاشراف الفنى :

محمــود الجــزار

تقــــديم

يسرني أن أقــدم للقــارىء الكريم هذا الكتاب : « مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات » للأستاذ يسري عبد الغنى • وهو دراســة قيمة تناولت عددا من المؤرخين المهمين من عصر الموســوعات بالتعريف والتوضيح والتحليــل ، وبعضهم أهمــله التــاريخ رغم اهميته مثل محيى الدين الكافيجى ، صاحب كتاب « المختصر فى علم التاريخ » •

وقد بدأ المؤلف بالكلام عن المقريزى ، الذى وصفه بأنه تلميذ مخلص لفــكر ابن خــلدون ، وتعرض لسيرته ولمؤلفــاته بالعرض والتحليل ، خاصــة كتابه تاريخ القاهرة ، الذى نعرفه باســم « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » •

كمــا تعرض لأبى المحاســن بن تغرى بردى ، ومؤلفــاته ، خصوصا كتــاب « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقــاهرة » ، ثم السخاوى ، خاصــة كتابه « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » ، الذى هو تكملة لتاريخ المقريزى الشهير : « السلوك لمعرفــة دول الملوك » •

كما تعرض المؤلف لابن اياس ، وكتابه الشهير : « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وكذا كتاب « عقود الجمان فى وقايع الأزمان » •

كما تعرض لعبد الرحمن السيوطى ، وكتابه : « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » .

وتناول المؤلف مؤرخا عاصر ابن تغرى بردى ، وهو عبد الباسط بن خليل الحنفى ، كما تناول أباه خليل بن شاهين ، ثم تعرض لحسن بن الطولونى صاحب كتاب « النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية » واختتمه بالمؤرخ المصرى أحمد بن زنبل .

وقد خاض المؤلف فى سيرة هؤلاء المؤرخين بالعرض والتحليل والنقد ، وقدم لحياتهم ومؤلفاتهم بمقدمة تاريخية مهمة تناولت الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والعلمية فى عصرهم ، مما أثرى هذه الدراسة التاريخية ، وأملى أن يستمتع بها القارئ .

والله ولى التوفيق ،،،

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

التاريخ

شعاع من الماضى

ينير الحاضر ، ويبنى خطوات

القادم ،

تمهيــد

لم يستطع سـقوط بغداد العباسـية فى الشرق ، على يد جحافل التتار الزاحفة ، ولا ضياع الأندلس فى المغرب على يد الإسبان ، لم يستطع هذا أو ذاك أن يذرو الكيان العربى فى وجه الرياح . حين أضطرب اللواء فى أيدى الحـكام والملوك تقدم العلماء فصانوا للعروبة ماضيها ، وجمعوا الرصيد الحافل لاثراء حاضرها ومستقبلها .

●

لقد تلقى المد العربى الزاحف أولى الضربات القاصمة التى جاءته من الشرق عـام ست وخمسـين وستمائة (٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م) حين سقطت بغداد حاضرة الخلافة الاسلامية فى أيدى التتار ، واندكت معالمها تحت سنابك خيولهم ، وبطش جحافلهم الهمجية المدمرة ، التي فاقت قوة الطوفان الجارفة .

ثم تلقى ثانية الضربات القاصـمة والحاسـمة بعد قرنين وما يقارب نصف القرن ، وكانت فى هذه المرة من الغرب حين

أكره المسلمون على الرحيل من الأندلس المسلمة عام سبعة وسبعين وثمانمائة من الهجرة تحت ضغط حرب الابادة الطاحنة من الاسبان والذى لم تكن وطأته مبعث الخطر بقدر ما كان ضعف المسلمين ، واختلاف كلمتهم هو العامل الجذرى والحاسم .

وتحت وقع الضربتين من الشرق ثم من الغرب ترنح المد العربى وتعثرت خطواته ، واستحالت الامبراطورية الاسلامية الكبرى فريسة للأطماع العادية من هنا وهناك ، ولقى المسلمون بين بغداد وقرطبة من ألوان التمزق ، والاضطهاد ، والغربة ، والعسف ما نذكره اليوم ، وملء قلوبنا مرارة وألما .

وبدافع طبيعى للخلاص من هذا الطوفان تحركت الجموع الناجية من الشرق ، ثم من الغرب باحثة عن الأمان والاستقرار فى مصر أو فى بعض مدن الشام والمغرب والتى ساعد وضعها الجغرافى بعض الشىء على أن تكون بمنجاة من الانهيار السريع تحت الضربات القاصمة .

وفى القاهرة ـ كعبة الرحمى ـ ومن جديد أخذ المد العربى المنحسر يجمع بقاياه ، ويلم اشتاته فى محاولة للتساند مرة ثانية ، لعله يمنع الفناء ، ويقوى فى مواجهة الطوفان .

فى هذه المرة لم تكن الأشتات المتساندة من قادة الجند ، ولا من رجال السياسية ، لأن هؤلاء فى ظلال المحنة الماحقة كانوا أعجز من أن ينهضوا بالدور المصيرى الإيجابى ، ومن ثم كانت الظروف التاريخية الواقعة تضع المسئولية ، وتهيء لدور العلماء الذين أسرعت أيديهم فى اخلاص شديد ولهفة صادقة ، تلم كل ما بعثره المغول فى الشرق أو الأسبان فى الغرب من رصيدنا الفكرى والثقافى ، وتضم بعضه الى بعض لتصنع البديل والعوض العلمى عن المجد السياسى الذى ضاع ، ولتضع منه قبل هذا سياجا روحيا وفكريا يحمى وجدان الأمة ويصون جوهرها من التفسخ ونفسيتها من التفتت ، وأعماقها من التحلل .

فى هذه الفترة المصيرية بين الضربتين ترددت فى قلب عالمنا العربى الاسلامى عشرات الأسماء من كبار الأعلام الذين فجرت المحنة فى وجدانهم العربى المسلم الواعى ، الوعى بحركة التاريخ ، فشرعوا يجمعون ويوثقون كل ما بعثرته الأحداث من أمجاد أمتنا ، ومن تاريخ فكرها ، وسير رجالها ، ثم ارتقى احساسهم بالتاريخ فبحثوا فى فلسفته وفى رجاله ، وفى أسرار حركته .

ويمكن لنا أن نقسم ذلك الى اتجاهين :

في الاتجـاه الأول :

ظهرت المجاميع الضخمة والموسوعات الشاملة والتى كان من أبرز رجالها :

● ابن ابى اصيبعـة :

(٦٦٨ هـ) صاحب طبقات الأطبـاء .

● صلاح الدين الصفدى :

(٦٧٤ هـ) صاحب الوافى بالوفيـات .

● ابن خلـكان :

(٦٨١ هـ) صاحب المختصر فى أخبار البشر .

● الذهبـى :

(٧٤٨ هـ) صاحب تاريخ الاسـلام .

● ابن شـاكر الكتبي :

(٧٥٤ هـ) صاحب فوات الوفيـات .

● ابن حجر العسـقلانى :

(٧٥٢ هـ) صاحب الدرر الكامنـة .

● المقـريزى :

(٨٤٥ هـ) صاحب الخطط .

وفى الاتجـاه الثـانى :

اتجاه فلسفة التاريخ ، وكانت المدرسة التى بدأت :

ـ بابن الطقطقى :

(٧٠٢ هـ) فى كتابه الفخرى .

ـ وثنت بابن خلدون :

(٨٠٨ هـ) فى مقدمته الشهيرة .

ووراء هذين كان اتجاه الجمع الموسوعى الذى برز من أعلامه :

ـ ابن منظور :

صاحب لسان العرب .

ـ ابن فضل الله العمرى :

صاحب مسالك الأبصار .

ـ النويرى :

صاحب نهاية الأرب .

وغيرهم ... وغيرهم .

●

وواضح من هذه الاتجاهات فى البحث والتجميع ، ومن هذا الجهد الدؤوب المتفانى ، ومن هذا النتاج الرائع الذى يعتبر ـ دون مبالغة ـ معجزة فريدة اذا ما قيس بأعمار القائمين به وظروفهم كأفراد عزل من التأييد ومن مساندة الدولة ، واضح

من كل هذا كيف كان يتحرك الروح العربي الناجي من وجه المغول والأسبان مدفوعا بالحرص على انقاذ ما يمكن انقاذه من بين فكي المحنة المطبقة من الشرق ثم من الغرب ، وحريصا في الوقت نفسه على استبقاء الوجود العربي حتى لا يجرفه الطوفان .

وبوسعي أن أذهب وأقرر أن حركة أولئك العلماء في مختلف اتجاهاتهم لم تكن صدى الانعزال أو الرهبنة الفكرية ، أو الهروب من الواقع المظلم والا ما كانت في صميمها محاولة أصيلة للمقاومة بالكلمة حين عزت في تلك الآونة المقاومة بالجند والسلاح .

ان كل عالم من هؤلاء انما كان في الحقيقة بطلا من أبطال المقاومة ، وكل وثيقة علمية ثمرة من ثمرات هذه المقاومة في وجه هذه المحنة المظلمة ، انما هي الى جانب قيمتها العلمية وثيقة صادقة من وثائق النضال .

ولعل في هذه النظرة ما يعطينا التفسير الطبيعي لصبر هؤلاء العلماء ، وتبتلهم النادر للاستقصاء والبحث العلمي الجاد ، فقد أعطوا من أعمارهم بسخاء منقطع النظير ، أعطوا من ذوات أنفسهم ما تتقطع دونه أعناق الكثيرين من المعاصرين .

●

وقبل أن نعيش مع مجموعة من علماء عصر الموسوعات ، لا نجد مفرا من الجولان فى هذه الحقبة : (سقوط بغداد ـ ما بعد سقوط بغداد ـ سقوط الأندلس ـ ما بعد سقوط الأندلس) وقد قصرنا هذا التجوال على معرفة أحوال عالمنا الاسلامى من الناحية السياسية ، ومن الناحية الاجتماعية ، ومن الناحية الدينية ، ومن الناحية العلمية ، كل ذلك بغية معرفة الظروف والأحوال التى عاش فيها علماء الموسوعات وكيف رغم الكم الرهيب من السلبيات التى غمرت هذه المرحلة ، كيف قاوم العلماء واقعهم واتجهوا مباشرة نحو هدفهم .

●

كان التجمع فى القاهرة ، القاهرة المملوكية ، وفى بعض بلاد الشام الا أن أكبر قوة استقرت فى القاهرة وأعطت ثمارها رغم كل الظروف السياسية والاجتماعية والمذهبية .

الأحـــوال السياســـية

عصر الموسـوعات أو العصر المملوكى عصر ممتد حوالى (٢٧٧) عاما ميلاديا أى ما يقرب من قرون ثلاثة .

انه عصر الغرابة الحقيقية ، عصر سمته الفوضى وعدم الولاء وهو طابـع المماليك العـام ، فالعزل والتولية يخضعان للقوة

والسطوة ، فمن يملك يحكم ، والمؤامرات تحاك من الخصوم والأعداء معا ، والغدر يقع بالقائد المبرز بعد أن يحقق الانتصارات المجيدة ، ويقوم بالأعباء الجسام ، ويحسم المعارك الفاصلة لصالح أمته ، واذا كانت المدينة الحديثة تكلل بالغار والفخار صدر المنتصر ، فالمماليك كانوا غالبا ما يحكمون عليه بالموت غدرا ، وهو فى أزهى ساعات مجده ، فقد قتلوا سيف الدين قطز بعد انتصاره التاريخى على التتار فى (عين جالوت) الخالدة ، كما أنهم اغتالوا الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) قتلوه بعد استيلائه على عكا الفلسطينية آخر حصون الصليبيين ، وكان له دور عظيم فى تاريخنا الاسلامى ... قتلوه !! كيف تكون ضربة الغدر هى جزاء المكافح الناجح ؟ !

عصر غريب حقا ، كانت حالة البلاد الاسلامية فى تلك الفترة من تاريخنا سيئة الى درجة كبيرة ، بل لا نبالغ اذا قلنا انها من أسوأ فترات العصور الوسطى ككل من الناحية السياسية ، فالبلاد عبارة عن ممالك واقطاعيات صغيرة يحكمها أمراء من العجم والمماليك ، ممالك تعانى من الضعف والحرمان ، تعانى من الفقر والجهل والمرض ، والخلافة فى ذلك الحين ليس لها الا الاسم والرسم ، أما السادة الذين لهم السيادة

الفعلية فهم المتغلبون من العجم والمماليك ، يعزلون من يشاءون عزله ، ويولون من يريدونه .

والأدلة كثيرة على ضعف الخلافة الاسلامية ، وتدخل المماليك فى الأمور كلها ، وأن السلطة الفعلية كانت فى حوزتهم، يحركون السياسة فى البلاد وفقا لمزاجهم الشخصى.، ها هو ذا ابن كثير يحكى لنا أنه حدث فى سنة ٧٣٧ هـ أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اعتقل الخليفة المستكفى بالله العباسى ومنعه من الاجتماع بالناس (حدد اقامته) ، ثم أفرج عنه بعد ذلك ، ولكنه ما لبث ان نفاه السلطان مع أهله وذويه الى بلدة (قوص) بصعيد مصر ، وبقى الخليفة بها الى أن توفى ، واستبد الملك الناصر بالأمر وحده الى يوم وفاته . ثم خلفه ابنه المنصور سيف الدين عام ٧٤٢ هـ . فبايع سيف الدين هذا أمير المؤمنين أبا القاسم أحمد بن المستكفى بالله .

ويصل ضعف السلطان (الأشرف خليل) أن غلمان أمير الاسكندرية يتحرشون بمبعوثه الذى أرسله من قبله ليجهز الاقامات لأجل قدوم السلطان ، ويستولى غلمان (بيدرا) أمير الثغر السكندرى على البهار ، وأدخلوه الحواصل ، ويحدث بين مبعوث السلطان وبين غلمان (بيدرا) شجار طاحن .

ويرسل المبعوث رسالة عاجلة بما حدث للسلطان الا أنه

يزيد على كل كلمة عشرا ، وأغلظ القول فى حق بيدرا ، وأثخن جراحاته عند السلطان حتى حرضه عليه .

وكان ذلك سببا ـ كما يذهب ابن اياس ـ الى زوال الملك الأشرف خليل وملكه « ورب غش قد اتى من نصيح » .

ويصدر الأشرف قراره باستدعاء (بيدرا) ، وقت الظهر ، فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام ، وقصد القبض عليه ، وتوعده بكل سوء ، فتلطف بيدرا فى الكلام ، حتى خرج بين يديه ، فاجتمع بمناصريه من الأمراء ، واتفق رأيهم على قتل السلطان !!

وكان الأشرف خليل مولعا بالصيد ، فأعطى العسكر دستورا بالتوجه الى القاهرة ، وخلا بنفسه ، فمضى العسكر وجماعة من الأمراء ، وبقى السلطان فى نفر قليل من المماليك والخاصة .

فلما كان يوم السبت خامس عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، ركب السلطان وانفرد وحده ، وليس معه سوى أمير شكار ، أحمد بن الاشل .

فلما بلغ الأمراء ذلك ، ركب الأمير بيدرا ، والأمير لاجين ، والأمير قراسنقر ، والأمير بهادر ، وجماعة من المماليك السلطانية ، وشدوا فى أوساطهم سيوفهم ، واقتربوا من خيام السلطان فوجدوه وحده ، وليس معه سوى أمير شكار ، وبعض المماليك ، فقالوا : « هذا وقت انتهاز الفرصة » .

فلما رآهم السلطان قاصـــدينه ، أحس ، وظهر له منهم الغدر ، فلما قربوا منه ، عاجلوه بالحسام قبل الكلام ، وكان أول من طعنه الأمير بيدرا ، النائب على الاسكندرية ، فضربه بالسيف على يده ، فصـــاح عليـــه الأمـــير لاجين ، وقـــال : « ويلك ، الذى يريد السلطنة يضرب هذه الضربة » .

ثم ضربه الأمير لاجين على كتفه بالسيف ضربة قاتلة ، فوقع على الأرض فجاء اليه الأمير بهادر ، ونزل عن فرســـه ، وأدخل السيف فى دبره ، وأطلعه من حلقه ، وصار كل أحد من الأمراء يظهر ما فى نفسه منه ، وتركوه ميتا فى الفضاء ملقيـــا على ظهره تأكله الطيور والحيوانات فى صحراء مصر الغربية .

هـــذا الغدر اللاانسانى يقع مع من ؟ مع الأشرف خليل الذى خاض المعـــارك تلو المعارك ضـــد الصليبيين فى الشام وانتصر عليهم .

وبعد هذه الجريمة المعتادة يجمع المماليك على اختيـــار القاتل (بيدرا) سلطانا للبلاد ، ويصدر (بيدرا) أوامره باعتقال عدد كبير من المماليك ، لأنهم شجبوا وأدانوا مقتل الأشرف ، وتبعه المماليك الموالون للأشرف خليل فى كل مكان ، فهرب نحو الجبل ، وتمكنوا منه وقبضـــوا عليه ، ثم أحضروه فى حضرة الأمير كتبغا ، وانهال عليه المماليك بالسيوف ، فقطعوه ، وشقوا بطنه ، وأخرجوا كبده ، وصار كل أحد من المماليك يقطع منه

قطعة ويأكلها ، من شـدة قهرهم على أستاذهم الأشرف خليل .
وحز الأمير (كتبغا) رأس بيدرا وجعلها على رمح ، وأرسلها الى القاهرة ، فطافوا بها ، ثم علقوها على باب بيته .

●

هذه صورة حزينة من صور الاضطراب السياسى فى هذا العصر ، أو بالأحرى صورة للجانب الحزين فيه ، فلا ننسى أنه عصر الموسوعات العلمية رغم كل هذه البقاع السوداء .

وننتقل الى سنة ٧٤٨ هـ حيث سلطنة المظفر حاجى ، هذا الملك الطائش الذى كان مولعا بلعب الحمام ، فخرج فى ذلك عن الحد ، حتى قيل : أنه إنفق خمسين ألف دينار على الحمام ، فصنع لها خلاخل ذهب فى أرجلها ، وألواح ذهب فى أعناقها ، وصنع لها مقاصير خشب ، مطعمة بالعاج والأبنوس ، وأقام لها غلمانا يكلفونها ، ورتب لهم فى كل شـهر راتبا ، بسبب خدمة الحمام ، فأفنى ذلك المـال كله على الحمام .

ويعلق الشيخ شـهاب الدين بن أبى حجله فى ترجمتـه للمظفر حاجى هـذا ان الطيور عنده أهم من تدبير الأمور ، والتهى عن أمر الأحكام ، بالنظر الى الحمـام ، فجعل السطح داره ، والشمس سراجه ، والبرج مناره ، وأطاع سلطان هواه ،

وخالف من نهاه ، وخرج فى ذلك عن الحد ، ولا صار يعرف الهزل من الجد .

وكانت نهايته أن قبض عليه ، وأخذ ماشيا الى تربة عند الباب المحروق ، فخنق فى تلك التربة ، ودفن بها ، ولم يشعر أحد من الناس به ، ومضى أمره بعد أن حكم سنة وأشهر ثلاثة وثمانية عشر يوما .

ولا أدل كذلك على ضعف السلطات السياسية من تدخل الأمراء والثوار فى كل الأمور فقد تدخلوا فى سنة (٧٤٧ هـ) بقيادة نائب السلطنة فى ذلك الحين فى أمر المملكة وجمع الأمراء حوله ، ودعا الى تولية السلطان حاجى بن الناصر محمد ، وعزل أخيه الملك الكامل (سيف الدين) وكان لهم ما أرادوا بالقوة ، بعدها فر الملك الكامل مع أنصاره ، وبعد أن قتل فى المعركة بعض الأمراء ، ثم أجلسوا السلطان الجديد على سرير الملك . وسموه الملك المظفر ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ولكنهم ما لبثوا أن غضبوا عليه — وتحزبوا ضده فخرج اليهم فى نفر قليل من أتباعه فقتلوه عام (٧٤٨ هـ) .

ونظرة واحدة على حكام هذا العصر والمدد التى تولوا فيها الحكم نلمح مدى الاضطراب والفوضى الذى ساد هذا العصر ، فقبل قلاوون تولى أيبك (٦٤٨ هـ) ، على بن أيبك

(٦٥٥ هـ) ، قطز (٦٥٧ هـ) بيبرس (٦٥٨ هـ) ، بركة خان ابن بيبرس (٦٧٦ هـ) ، سلامش بن بيبرس (٦٧٨ هـ) .

وفي عهد قلاوون وابنيه خليل والناصر تولى قلاوون (٦٧٩ هـ) ، الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٠ هـ) ، الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الأولى) (٦٩٣ هـ) كتبغا (٦٩٤ هـ) ، لاجين (٦٩٦ م) الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثانية) (٦٩٨ هـ) ، بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ هـ) ، الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة) (٧٠٩ هـ) .

ثم يجىء أولاد الناصر : أبو بكر بن الناصر محمد (٧٤١ هـ) ، كجك بن الناصر محمد (٧٤٢ هـ) ، أحمد بن الناصر محمد (٧٤٢ هـ) ، اسماعيل بن الناصر محمد (٧٤٣ هـ) ، شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦ هـ) ، حاجى بن الناصر محمد (٧٤٧ هـ) ، حسن بن الناصر محمد (٧٤٨ هـ) ، صالح بن الناصر محمد (٧٥٢ هـ) ، حسن بن الناصر محمد (سلطنته الثانية) (٧٥٥ هـ) .

ثم أحفاد الناصر : صلاح الدين بن حاجى (٧٦٢ هـ) ، شعبان بن حسن (٧٦٤ هـ) ، على بن شعبان (٧٧٨ هـ) ، حاجى بن شعبان (٧٨٣ هـ) ، .

ثم سلاطين المماليك البرجية وهم : برقوق (٧٨٤ هـ) وفى خلال سلطنة برقوق استطاع يلبغا آن يتغلب عليه ويعيد للسلطة حاجى بن شعبان المملوك البحرى لمدة عام واحد (٧٩١ هـ — ٧٩٢ هـ) ثم استطاع برقوق أن يستعيد مكانته ، فرج بن برقوق (٨٠١ هـ) ، عبد العزيز بن برقوق (٨٠٨ هـ) ، فرج برقوق مرة ثانية (٨٠٩ هـ) العادل المستعين بالله الخليفة العباسى الذى أصبح سلطانا مع الخلافة (٨١٥ هـ) ، المؤيد شيخ (٨١٥ هـ)، أحمد بن المؤيد ولم يكمل العام فى الحكم (٨٢٤ هـ) ، سيف الدين ططر (٨٢٤ هـ) ، محمد بن ططر (٨٤٢ هـ) ، لم يكمل العام فى الحكم ، الأشرف بارسباى (٨٢٥ هـ) ، يوسف بن الأشرف بارسباى (حكم ٩٤ يوما) (٨٤٢ هـ) ، حقمق (تشقمق) (٨٤٢ هـ) ، عثمان بن حقمق (لم يكمل العام فى الحكم) (٨٥٧ هـ) ، سيف الدين اينال (٨٥٧ هـ) ، أحمد بن اينال لم يكمل أربعة أشهر فى الحكم ، (٨٦٥ هـ) ، خشقدم (٨٦٥ هـ) ، بلباى (٨٧٢ هـ) ، تيمور بغا (٨٧٢ هـ) عزله خير بك وتسلطن ليلة واحدة ، ثم زحف قايتباى واستولى على الحكم فى (٨٧٣) هـ ، محمد بن قايتباى الذى عزله قانصوه وتولى بدله مدة ثلاثة أيام ، الظاهر قانصوه الأشرفى (٩٠٤ هـ) أشرف جانبلاط (٩٠٥ هـ) ، ثم حاول مملوك يدعى طومان باى الاستيلاء على السلطة ولكن الأمر لم يستقر

له ، حتى جاء الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦ هـ) ، ثم جاء طومان باى (الثانى اذا اعتبرنا سلطنة الأول طومان باى) (٩٢٢ هـ) .

●

ان هؤلاء المماليك ليس فيهم الوازع الدينى القوى والدليل على ذلك تمثيلهم بجثث بعضهم ، والغدر ، والخيانة ، وحبك المؤامرات ، ومثال ذلك ما قام به كرجى مقدم المماليك ومعه مجموعة من عصابته وقرروا قتل السلطان (حسام الدين لاجين) الذى تولى السلطنة (٦٩٦ هـ ـ ٦٩٨ هـ) فتم لهم ذلك ، وقتلوا السلطان وهو يؤدى صلاة العشاء أمام وجه رب العالمين . !

ما سبق أدلة قليلة نسوقها على مدى ضعف الخلافة المسلمة ، وتدخل الأمراء والسلاطين فى شئون الحكم وتوجيه دفة الأمور لأغراضهم ومصالحهم الشخصية ، فالسلطة فى يدهم يولون ويعزلون كما يشاءون . كل ذلك وبلادنا الاسلامية مهددة بالغزو الأوربى من الغرب ، فقد أغار الأوربيون الصليبيون على ساحل الشام ، ونزلوا به واستولوا على معظم مدنها الساحلية وأسقطوا حصون عكا وذبحوا من بها من المسلمين الأبرياء ، واقتحموا بيت المقدس الشريف وهدموا

أركانه ، وفعلوا به من المنكرات ما لا يتفق مع أى عرف أو أى دين أو عقيدة ، وانتهكوا الحرمات فى الحرم المشرف الذى أسرى اليه رب العالمين برسول المساواة والعدل والحق صلى الله عليه وسلم .

كما كانت أطراف معمورتنا الاسلامية من ناحية الشمال مهددة بغزو تترى همجى ، أغاروا علينا وأسقطوا بغداد عاصمة الخلافة ومقرها عام (٦٥٦ هـ) على يد همجى يدعى « هولاكوخان » واستولوا على بغداد الاسلامية ، واستعملوا فيها أعمال التخريب والتدمير والقتل حتى صارت بغداد فى ذلك الوقت بحرا من الدم من كثرة القتلى ، حتى ليقال : ان هواءها قد فسد ، ورائحتها قد تغيرت من كثرة الجيف الملقاة على قارعة شوارعها ، والتى لم تجد من يدفنها ويدارى سوءاتها ، كما يروى ابن كثير فى « البداية والنهاية » .

وقبض (هولاكو) حفيد جنكيز خان على الخليفة العباسى المسلم بعد أن قرر اباحة العاصمة المسلمة لرجاله مدة أربعة أيام ، ثم قتل الخليفة العباسى نفسه ، ووراءه الكثير من أفراد عائلته ، قتل الخليفة أهله أو أغرقهم كما يقولون بدلا من السبى والاذلال ، وزالت الخلافة العباسية ، وغربت شمسها فى مشهد حزين أخرجه للوجود التمزق العربى والتطاحن من أجل الأهواء والزعامات الزائفة .

ومن بغداد زحف (هولاكو) الى الشـام ، وأحتل حلب السورية وأعمل السيف دون رحمـة فى خمسين ألفا من سكانها الأمنين ، ثم احتل حماة دمشـق وعقد معاهدة مع انطاكيـة المسيحية الصليبية للتعاون ضد المسلمين .

وكانت الحروب مستمرة بين أهل الاسـلام والتتـار من جهة ، وبينهم وبين الصليبيين من جهة أخرى ، حتى أن دمشق العاصمة السـورية قد سقطت يوما فى أيدى التتار فاستعملوا فيها أعمـال التخريب والقتل بشـكل مريب ، وهدموا بعض المساجد ، وفعلوا بها المنكرات كما يروى ذلك ابن اياس فى تاريخه ، وابن كثير فى « البداية والنهاية » ولكن من حسـن حظ المسلمين ، أن الجيش المصرى تزعم اجتماع كلمة المسلمين ووحد الصفوف ، وهزم التتار هزيمـة منكرة فى عين جالوت وبيسان (٦٥٨ هـ) فى شهر رمضان ، والحق يقال : ان المماليك قد أظهروا شجاعة بالغة ، وكانت القيـادة لقطز سـلطان مصر وبجواره (بيبرس) وقد روى ابن تغرى بردى فى نجومه الزاهرة تفاصيل هـذه المعركة ، كما فصـل ابن كثير أحداثها ، كذلك ابن اياس .

وقضى الله بقدرته سبحانه على الصليبيين ، بعد أن هزمهم الأشرف خليل ابن الملك المنصـور قلاوون وأخرجهم من بلاد

الشـــام دون رجعـــة وكفى الرحمن المؤمنين شر هؤلاء القوم الفاشيين (راجع : أبو المحاسن ، وابن كثير ، وابن اياس) .

وفى ذلك الحين كانت الخلافة العباسية نقلها بيبرس الى مصر ، وكان أو خليفة بويع بها هو الخليفة المكنى (بالمنتصر بلله) أبو القاسم « أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر » بايعوه بالخلافة المسلمة عام (٧٥٩ هـ) وبعد أن شغل الخلافة أكثر من ثلاث سنين الا أن خلافته هذه لم تدم طويلا ، فعزل ، وبويع من بعده الحاكم بأمر الله أبو العبـــاس « أحمد بن المسترشد بالله العباسى » عام (٦٦٠ هـ) .

وهكذا نجد أن حياة المسلمين فى ذلك العصر كانت مليئة بالمصـــائب والأحداث الجسام التى روعتهم وأضنتهم ، ووقع فى قلوبهم أن مصـــدر ذلك كله ، انمـــا يعود الى انقســـامهم وخلافاتهم ، وتطاحنهم فيما بينهم ، وتفرق كلمتهم بسبب انحرافهم عن تعاليم الدين ، لذلك تهيأت أذهانهم لقبول الفكر الموسوعى وما صاحب معظمه من دعوات اصلاحية جديدة ، تدعو الى نبذ البدع والأوهام والأباطيل ، وتدعو الى الوحدة ونبذ الخلاف .

وفى ذلك يقول الشـــيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابـــه « فيلسوف العرب والمعلم الثانى » ما نصه (ص ١١٩) :

(كانت الدولة الاسلامية هما مما أصابها من أثر الخراب المغولي ، فأصبحت الفرصة سانحة لتوجيه الشعب الى اصلاح الاسلام بالرجوع الى السنة التي كان الخروج عنها مدعاة لغضب الله) .

وهذه الحالة هي التي دعت رجلا مثل الامام الثائر « ابن تيمية » ومن بعده « ابن القيم » تلميذه النجيب ، دعتهما الى القيام بدعوة اصلاحية شاملة ، والتمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه أفضل صلاة وأصفى سلام ، دعوة أساسها نبذ الخلاف الأجوف ، والجدل البيزنطي العقيم والسفسطة الخاوية المتحذلقة القائمة بين المسلمين بمختلف مللهم ونحلهم، دعوة لتوحيد المذاهب الفقهية والكلامية ، وأعلن كل من الرجلين ان السبب الجوهري في انحسار المد المسلم وضعفه وتفرق كلمته ، انما هو الخلاف الحادث بينهم .

عصر غريب حقا : الأعمام والاخوة القتلة ، والخونة واليائسون يتسولون الأمان من عبيدهم : ومن أعدائهم على السواء ، وبدو الصحراء يتحولون من قطاع طرق مطاردين الى جيش احتياطي مخيف يهزم ويحطم أكبر أداتين عسكريتين عرفهما العالم في القرون الوسطى : الصليبين والتتار في أقل من عشرة أعوام ، ثم يعودون كما كانوا قطاع طريق مطاردين .

آشقاء وأصدقاء يتبادلون القتل والخيانة والجوارى والعروش ، أطفال يولون السلطنة ويعزلون وسط أطقم كاملة من ضوارى الرجال الطامحين ، ومدن تقام وأخرى تهدم أو تأكلها النيران بيد سكانها أو أعدائها لا فرق ، وشعراء يتباهون بخدمة العبيد ، ويهدون بأنفسهم أمجاد أمتهم للعبيد ، وفقهاء يحاولون قدر الطاقة منطلقين من نصوص دينهم الخالد .

وفى رأينا أن بطولة بعض المماليك فى حاجة الى اعادة نظر فورية وحاسمة ، نعم نحن نأخذ سيرة هؤلاء من مؤرخين كبار فى عصرهم ولكن أكثرية هؤلاء غالبا ما يكون من أبناء المماليك أنفسهم كابن تغرى بردى أو ابن اياس ، أو من المقربين اليهم العاملين فى دواوينهم كالمقريزى ، وقد صنعوا ما صنع الشعراء الشعبيون أحيانا وخاصة فيما يتعلق بحياة بيبرس البندقدارى الركنى الصالحى .

ونعتقد أن سيرة الظاهر قد تم تأليفها أو تأليف هيكلها بتكليف مباشر من بعض دواوين الدولة الظاهرية نفسها ، كجزء من عملية الدعاية المنظمة لشخص الظاهر وتأليف القلوب حوله : بعد قتله البشع لصديقه وزميله قطز واستيلائه على العرش . عقب القضاء بقيادة قطز على التتار فى عين جالوت وبيسان .

ونحن نحتمل رأيا آخر هو أن سيرة بيبرس ربما تكون

قد خضعت لتعديل من بدايتها فى عصر قلاوون لاقناع الناس بأن قلاوون الألفى كان زميلا لبيبرس وقطز ، ومساويا لهما فى المكان على الأقــل منذ عصر الصــالح نجم الدين أيوب ومعــركة المنصورة ثم الحرب ضد التتار والا فأى شىء يمكن أن يقنع الناس بشخصــه بعد أن سكت على مقتــل قطز بيد بيبرس وما كان له أن يتكلم ، ثم يتآمر قلاوون على أبناء ولى نعمتــه بيبرس الذى جعله أتابكا ونائبا للسلطنة ، وزوج ابنه الأكبر من ابنة قلاوون ليكى يضمن لابنه سـندا قويا من بعده ، بل ان بيبرس يكاد يكون هو المكتشف الحقيقى لقلاوون الذى يبدو من سيرته أنه كان حدثا مهمــلا لا وزن له أيام المنصــورة ، فلا يكاد اسمه يذكر فى أحداثها وما تبعها حتى عين جالوت الى أن يرقيه بيبرس الى رتبة مقدم ألف .

وقطز هو الآخر فى حاجة الى إعادة نظر : مناورته المتعددة المراحل والمستويات (من المناورة بين زوجتى أيبك شجرة الدر وأم على ، والمناورة بين القلعة ــ بكل تناقضاتها ــ وبين العلماء ومن ثم العامة ، والمناورة بين بدو الشام والأردن وبدو مصر وبين بقايا بنى أيوب فى دمشق وحمص وحماه ، بعد أن شارك بما لا يقبل الجــدل فى قتل أقطــاى بنفســه وتخويف زملائه الصالحية لارغامهم على التسليم أو الفرار وهو ما حدث بالفعل

قبل أن ينفرد بابن أيبك الصغير ليصبح أتابكا ثم يخلعـه ليصبح سـلطانا) .

الحقيقة أن قطز الرصين العاقل والذى يعتقد البعض أنه لا يتورط الا بمقدار وينصح لوجه الله بما يؤهله لقيـادة كل خصومه ، وخصـوم بعضهم البعض فى النهاية لمواجهـة العدو المشترك ولا ينشغل بأى حام وانما بما يتاح أمامه فحسب ، ولا نفهم تورطه فى قتل أقطاى الا لنوازع طيبة معناها : قطع دابر العداء الداخلى حتى يمـكن التفرغ لبناء وحـدة قوية ولو مؤقتة لمواجهة الخطر المـاحق القادم .

لقد كان منطقيا أن يشارك فى قتل توران شاه ، أو أن يقتل أيبك أو يساهم فى التحريض على قتل شجرة الدر .

والحقيقة أن قطز يبدو فى تاريخنا كأنه « سيد المتآمرين » ومدبر المكائـد الحربية والدموية ـ بصرف النظر عن نبـل مقصده النهائى وهو مقاتلة التتار وردعهم ، بينما يبدو بيبرس مساويا لقطز فقط فى عدد قتلاه : كان بيبرس قد قتل أو شـارك فى قتل توران شـاه ثم قطز ، لكن قطز قتل بيده أقطـاى ، وتغافل عن حماية سيده أيبك الى أن قتلته شـجرة الدر ، ثم أسلم شجرة الدر الى ضرتها لكى تقتلها ، ثم كل هذا بينما هو ماض فى تحسين صورته أمام العامة من خلال توثيق صـلاته

بالعلماء والصوفية وعلى رأسهم العز بن عبد السلام ، الصعيدى الشديدة السطوة الذى يبدو أنه كان يكره البدو كراهه للصليبيين أو التتار . !!!

لقد تجاهل التاريخ المملوكى شخصيات كان لها أكبر الدور كمحاربة مثل : سنقر الأشقر ، وبلبان الرشيدى وغيرهما ممن يبدو من أدوارهم السياسية أنهم لم يكونوا يقلون عن أقطاى ومكانته ، ولكنهم بالطبع لم يتفوقوا على قطز فى مناوراته !!

لقد تجاهل التاريخ المملوكى أيضا دور الشعب المصرى المقاتل حيث تجمع مائة ألف مقاتل تجمعوا تلبية نداء الواجب تحت لواء قطز فى عين جالوت وبيسان ، وقبلها تجمع أربعون ألفا تلبية لنداء الكامل عند حصار دمياط الأول ، ثم أكثر من سبعين ألفا تجمعوا للدفاع عن المنصورة .

هؤلاء الأبطال الميامين لا يذكرون الا عرضا عند المقريزى . وكان يحق لكل مؤرخى هذا العصر أن يذكروا بحروف من نور الفخار دور شعبنا فى هذا النضال . . .

ان التاريخ المملوكى فى حاجة الى تنقية فطومان باى لم يفقده والده وهو صغير ، ولم يقض الأب عمره باحثا عن ابنه ثم لا يعثر الأب على ابنه المملوك السلطان (طومان باى) الا معلقا مشنوقا على باب زويلة .

ولم يكن كذلك لقلاوون أب يبحث عنه ، لأن النخاسين اختطفوه صغيرا ، فيراه الأب فى القاهرة قلاوون ، ويجده أميرا مهابا قريبا من السلطان ينتظر دوره فى السلطنة ويتآمر مع المتآمرين ، الى أن يتخلى عنه قلاوون دون أن يعترف بأنه أبوه حقا خشية أن يقال وهو الأمير القريب من العرش ، ابن خادم آسيوى فقير . ولكنه يعود فيعترف لزملائه كلهم بأن الرجل أبوه ، بعد أن يكون الرجل قد مات بالفعل . وهى لحظة شهامة قلاوونيـة غير مفهومة . كل ذلك محض ادعاء لا علاقة له بالتاريخ الحقيقى ، نفس الأمر بالنسبة لقطز لم يكن ابنا لجلال الدين آخر سلاطين الخوارزمية الذين نكبهم التتار ، ولا علاقة له بهذه الأسرة ، ولكنها محاولة دعائية كى تجعل لقطز الحق الشرعى فى عرش مصر ، وحقا لاهوتيا فى هزيمة التتار .

الحالة الاجتماعية

الحالة الاجتماعية فى أى مجتمع ما هى الا صدى مباشر لأحواله السياسية والاقتصادية والفكرية اذن ليس لنا مقدما أن نتوقع حالة اجتماعية طيبة مستقرة ثابتة ، بعد كل ما قدمنا من سوء الحالة السياسية ، وما كان فيهامن فوضى وقلاقل واضطرابات وصراعات ، وتنازع وشقاق ، فقد أدى تنازع الأمراء المسلمين فيما بينهم ، وقتل الخلفاء والتمثيل بهم ، وكثرة

الغارات على البلاد الاسلامية ، أدى ذلك الى اضطراب الحالة الاجتماعية فى البلاد المسلمة : ووجود تيار جارف من الخوف والرعب فى نفوس الناس بحيث أصبح لا يطمئن أحد على نفسه أو ماله أو عرضه أو أهله ولا يطمئن على يومه أو غد أو مستقبله ككل •

وحدث الجدب والقحط وانتشر الفقر المتقع فى أنحاء البلاد ، حتى أن المصريين كانوا يحفرون الحفرة ليضعوا فيها هزال الناس ، من شدة الجوع ، ويحفرون اللحود لدفن الموتى جوعا ، بسبب شح الطعام ، وارتفاع الأسعار بشكل جنونى ، وندرة الأقوات وقلة المحصول الزراعى الذى سببه الجدب ؛ وشن الغارات والحروب الداخلية هكذا يحدثنا (ابن كثير) ومن حديثه نأخذ أدلة كثيرة على سوء الحالة الاجتماعية :

ـ ففى سنة (٦٩٥ هـ) حدث قحط شديد فى ديارنا المصرية ، وارتفعت الأسعار فى جميع البلاد الاسلامية : مصر والشام ومكة والمدينة ، حتى بلغ الرطل الواحد من اللحم سبعة دراهم !! وحتى بيع الفروج الواحد بخمسة عشر درهما ، والبيضة الواحدة بأربعة دراهم !! ، واشتد الأمر على الناس وضاقت بهم السبل • !!

ـ وابن اياس يقول لنا : أن الأمر اشتد بالناس وحزبهم فأكلوا الكلاب والحمير والخيل والبغال ولم يبق من الدواب

شيء عند أحد من الناس ، وبيع الكلب فى ذلك الوقت بخمسة دراهم أى ما يساوى ثمن بيضـــة أو رطل من اللحم !!!

ـ ومازال (ابن كثير) معنا يحدثنا عن الرمادة والقحط فى ذلك العهد الغريب العجيب فقد حدث فى عام (٧١٨ هـ) أن قل المطر فى بلاد الجزيرة الموصلية ، فحصـــل الجدب والقحط ، وارتفعت الأسعار فاشتد الغـــلاء ، وعدمت الأقوات بحيث أكلوا كل ما وجدوه من الجمادات والحيوانات ، ومن قلة الأموال التى يشترون بها ما يســـدون به رمقهم باع الناس كل شيء يملكونه حتى أولادهم وأهلهم ، وبيع الولد فى ذلك الحين بخمسين درهما بل وبأقل من ذلك اذا ساوم المشترى !!

ـ سيطر العوام واللصوص على الموقف تماما وتفاقم أمر العامة واللصـــوص وقطاع الطرق ، وانتشر السلب والنهب فى البلاد وذاع الخراب والسرقات ، ففى سنة (٧٤٢ هـ) نادى واحد من الأمراء المماليك العوام والعســـكر ، وأمرهم بنهب بيت الاتابكى (قوصون) فدخل العوام بيته ، وأحرقوا باب داره ، ونهبوا كل ما فى اصطبله من خيل وبغـــال ، وسرقوا ما عنده من الســـلاح والنحـــاس والطعـــام وغـــير ذلك ، و (قوصون) ينظر اليهم من نافذة داره فى ذهول واستغراب وان كان استغرابه ليس فى محله ، فذلك سلوك مملوكى معتاد ،

ولكنه لا يملك لنفسه دفعا ، وقد خاطب أحد الأمراء بقوله : يا مسلمين أما تحفظون هذا المــال الذى تنهبه العوام ، أما أن يكون لى أو للسلطان ! فقالوا له : ان الذى معك من الأموال والتحف يكفى السلطان ، ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل هجم عليه بعض الأمراء ، واعتقله وسرعان ما خلعوا الملك الأشرف (عــلاء الدين) فى ذلك الوقت ، وولوا بعده الملك الناصر (شهاب الدين أحمد) عام (٧٤٢ هـ) .

ويؤكــد المقريزى فى الســلوك (جـ ٤ ص ٧٤٥) أن علاء الدين كان ممتازا ، وكان موضع حب الجميع حتى أن أباه (قلاوون) فكر فى توليته السلطة بدله وهو على قيد الحياة ، ويقال أن أخاه خليلا نفس عليه هذه المكانة فدس له الســم فمات ، ولم يعين قلاوون خليلا وليا لعهده لهذا السبب ، وقال عندما عرض عليه هــذا الأمر : أنــا ما أولى خليــلا على المسلمين . كما أن قلاوون لم يول ابنه الثالث لصغر ســنه ، وترك الأمر لقادة المسلمين ، وهو موقف طيب يحسب لقلاوون فى الميزان ، ولكن الســلطة بعد قلاوون آلت على كل حــال لابنه خليل (الأشرف خليل) الذى كان له دور عظيم فى القضاء على الصليبيين .

ــ لقد أتى على هؤلاء الســلاطين يوم كان الواحد فيهم يوكل به من يمنعه من اللعب مع أولاد العوام كما يقول صاحب

بدائع الزهور (٣/٣٣٧) . ومنهم من أقيم فى الحكم وعمره سنة واحدة ونصف !! ومن المضحك ان اسمه كان الملك المظفر شهاب الدين أبو السعادات أحمد ! (خطط المقريزى ٣/١٠٣) .

وهذا الحال ولاشك لابد له من أن يطمع الرعية بعضها فى بعض ويعين على ذيوع الخوف والاضطراب وهذا ما حدث .

ففى يوم الجمعة ١٢ رمضان ٨٦٣ هـ كما يقول ابن تغرى بردى : نهبت العبيد والمماليك الأجلاب النسوة اللاتى حضرن صلاة الجمعة بجامع عمرو بن العاص بمصر القديمة ، وأفحشوا فى ذلك الى الغاية وكل مفعول جائز (النجوم الزاهرة ١٩٨) .

لقد اتسمت الحالة الاجتماعية فى تلك الفترة بسمة التفكك وعدم الترابط ، اذ انقسم المجتمع الى طبقات متباينة .

الطبقة الأولى :

هى طبقة السلاطين والأمراء . وكلها من المماليك فقد كان الشعور المسيطر عليهم أنهم الطبقة الرائدة الممتازة . لما يتمتعون به من كفاءة عسكرية تجعل كل مطلوب لهم قريبا حتى لو كان الملك . لذلك فقد استحوزوا على كل امارات الحكم من امارة ،

ونظارة ، وملك • فلقد كانت الأرض الزراعيـة وهى مصـدر الثروة الأول فى الدولة حينذاك اقطاعيات بين هؤلاء — يستأثر السلطان وكبار الأمراء بأجودها وأكثرها خصـوبة ، فى حين يأخذ المماليك أوسطها خصوبة • وتقطع أجناد الحلقة والعربان والتركمان الدرجة الثالثة منها كما يذهب أستاذنا د• سعيد عاشور فى كتابه (العصر المملوكى فى مصر والشام) •

الطبقـة الثانيـة :

طبقة العلمـاء والفقهاء • وهـذه كانت تتألف من أرباب الوظائف الديوانية ، والفقهاء ، والعلماء والأدباء ، والكتاب •

وكانت تلك الطبقة أحسن حالا من الطبقة التى تليها • فقد كان بيدهم أمور القضاء ، والتدريس ، والفتيا ، والخطابة، وكتابة الدواوين والمراسيل •

وقد كان هؤلاء العلماء يمثلون فى ذلك الوقت حـكومات الظل أو الحكومات الخفية لمـا كانوا يتمتعون به من اجلال وتقدير من العام والخاص • ولذلك خشيهم الأمراء فأغدقوا عليهم الأموال الطائلة ، ويعملون لهم كل حساب • على أن هذا لم يمنع بعض السلاطين من الطمع فيهم ، وضرب بعضهم ببعض فقد خلع ابن حجر العسقلانى أكثر من مرة ، وأرجع اليه بدلا من قاضى القضـاة علم الدين صالح البلقينى ، وخلع البلقينى،

وتولى بدلا منه السفطى كما يقول صاحب النجوم الزاهرة (٥/٣٧٣) •

ومرد ذلك ليس الاستخفاف بل هو الخشية •

يدلنا على ذلك أن الواحد منهم حينما كان يعزل العالم أو القاضى يستر ظلمه ، وجوره مدعيا انه يحرص على نفع عالم غيره وخدمته • بل ان أحدهم لم يجد ملجأ يلجأ اليه من لوم القضاء ورجاله سوى اعلانه أن تصرفه هذا كان بمشورة الشيخ جلال الدين السيوطى • يقول ابن اياس •

« ومن الحوادث ان الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز عهد للشيخ جلال الدين السيوطى بوظيفة لم يسمع بها قط ، وهو أنه جعله على سائر القضاة قاضيا كبيرا ، يولى منهم من شاء ، ويعزل من شاء ممالك الاسلام ••• فلما بلغ القضاة ذلك شق عليهم ، واستخفوا عقل الخليفة على ذلك •• فلما قامت الدائرة والأسئلة على الخليفة رجع عن ذلك • وقال : ايشن كنت أنا ؟ الشيخ جلال الدين هو الذى حسن لى ذلك : وقال : هذه كانت وظيفة قديمة » • (بدائع الزهور ٣/٣٦٠) •

الطبقة الثالثة :

طبقة التجار : وكانوا يؤلفون طبقة تسامت على طبقة السلاطين والأمراء • وذلك لكونهم أقدر الناس ماديا على مد

السلاطين بالمال فى أوقات الحرج والشدة . وقد حظيت هذه الطبقة من المال بقدر وفير لما كانت تتمتع به مصر من وضع تجارى فريد . اذ كانت حلقة الاتصال التجارى بين الشرق والغرب .

غير أن هذه الطبقة لم تنج من ظلم الملوك والأمراء مثلما ظلم العلماء . وذلك بفرض ضرائب باهظة عليهم ، وبالسطو جبرا على خزائنهم وأموالهم ومتاجرهم . الأمر الذى أفقدهم لذة الشعور بصفو الحياة . فكان كثير منهم يدعو على نفسه أحيانا : « أن يغرقه الله حتى يستريح مما هو فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيه » . (العصر المملوكى . د. سعيد عاشور ٣١٢ بتصرف) .

الطبقة الرابعة :

طبقة الشعب الحقيقية : طبقة الفلاحين ، والعوام من أرباب الحرف ، والصناعات ، والسوقة ، والباعة ، والمعدمين ، والسقايين .

ولقد عاشت هذه الطبقة فى ضنك وعسر دائم بالقياس الى غيرهم ممن سبقهم من مماليك أو تجار أو علماء . وكان حظهم من حكوماتهم كل الاهمال والاحتقار . انتشر بينهم الفقر والجهل والمرض ولم يشعر الحكام بهم . كذلك لم يعطهم كتاب

التاريخ حقهم من الحديث عن أحوالهم ومعاناتهم رغم أنهم نبض الأمة الحقيقى ، فهم أبطال المنصورة ، ودمياط ، وعين جالوت وبيسان ، هم الجيش الشعبى أو الفداوية الذين قضـوا على أعتى قوتين متحالفتين ضد الاسـلام والعروبة أقصـد التتار وأدعياء حماية الصليب •

كان حظ هذه الطبقة من الحكومات المملوكية الاهمـال والاحتقار • ولا أدل على ذلك من أن كلمـة (فلاح) كانت تعنى شخصا ضعيفا ذليلا ، مغلوبا على أمره •

ولعل السبب فى ذلك كما يرى د• سعيد عاشور • ما كان يعامل به الفـلاح ، وما كان يفرض عليه من ضرائب باهظـة أتت أحيانا على محاصيله كلها وأرزاقه ، مما جعل بعضا منهم يترك الزراعة ، ويحترف تحت وطأة الحاجة الشديدة السلب ، والنهب والسطو للحصول على قدر من المـال يستعين به على مساومة غيره من الناس •

الا أن غالبية المزارعين قاموا بفلاحـة الأرض يتسلحون بالصبر على ما يحيطهم من سياج الحرمان والفقر • فالفـلاح المصرى بل العربى ظل دوما مربوطا الى الأرض الأم التى يفنى حياته فى خدمتها دون أن يتمتع بنصيب يذكر من خيراتهـا • وقد تعرض الفلاحون لكثير من العسف من جانب الحكام من ناحيـة ، ومن جانب الأعراب الذين تجبروا وطغوا عليهم دون

رادع لهم ، حتى « خربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد » . (المقريزى : اغاثة الأمة/٣٦) .

وكانت الأرض تزرع مرة واحدة فى السنة عقب الفيضان ، لأن البلاد لم تعرف فى ذلك العصر غير رى الحياض ، كما أن الفلاح لم يعرف من وسائل الزراعة والرى الا أدوات عتيقة من أيام الفراعنة .

هكذا كان حال المجتمع فى ذلك العصر ، عصر اضطراب بالاضافة الى ما حملته لهم الأيام من شدة وآلام وحدوث مجاعات فى أحايين كثيرة مردها الفوضى والاضطرابات وانعدام الأمن وانخفاض منسوب المياه فى نهر النيل ، مما أدى الى تلف الحرث ، وجفاف الضرع ، وشح الأقوات ، وذيوع أوبئة وطواعين .

ولعل من أسباب ذلك كما يذهب شيخنا / ابراهيم الأبيارى فى دراسة ضافية له عن هذه الفترة نشرت بمجلة تراث الانسانية (٢/٦٣٠) : انصراف الحكام فى كثير من الأحوال عن تدبير أمور رعيتهم .

الطبقة الخامسة :

ينبهنا د. أحمد شلبى فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الاسلامى (ص ٢٢٣) الى طبقة أخرى ظهرت فى

المجتمع المصرى فى مطلع هـذه الفترة وهى « طبقـة طوائف التتار التى فرت من حكم قادتهم ولجـأت الى مصر تحتمى بها وقد اعتنقت هـذه الطوائف الدين الاسـلامى وتعودت على أخلاقه وقد رحب بهم سلاطين المماليك وبخاصة الظاهر بيبرس رجاء أن يتخذهم أعوانا له وينتفع بما عرف عنهم من قوة وشجاعة ضد منافسيه فى الداخل وأعدائه فى الخـارج ، وقد أسكنهم حى (الحسنية) وكان فيهم جمال (رائع !!) مما جعل هـذا الحى يشتهر بالجمال • » •

أما الذى لم يذكره د• شلبى فهو أن الأمراء المماليك كانوا يتصـارعون فى عنف على شباب (الأويراتيـة) الذين كانوا يقيمون بحى الحسنية للممارسة الجنسية الشاذة ، كمـا كانوا يجنون الضرائب من ضامنات المغـانى ، وكن بمثابة قوادات رسميات معترف بهن من جانب الدولة !!

الخـلاف المـذهبى

من سمات هذه الفترة النزاع المذهبى والخـلاف الدينى بين مختلف الفرق الاسلامية والتى كانت تتطاحن فيما بينهـا والتى جرت على البـلاد الاسـلامية الكثـير من الويلات والمصـائب •

ومن الأدلة على الخلاف المذهبى الذى جر البـلاد الى الخراب والدمار ، ما حدث فى عـام (٦٥٥ هـ) الفترة التى تولى فيها (على بن أيبك) من الخـلاف المذهبى بين أهـل السنة والرافضة (الشيعة) ، والحرب التى وقعت بين الطرفين وكانت فيها الغلبة لأهل السنة على الرافضـة ، وحنق الرافضة على ألسنة واشتد حنقهم . حتى أن الوزير (ابن العلقمى) وكان رافضيا متعصبا أجرى محادثات سرية مع هولاكو قائد التتار واستعداه على مصر والشـام والعراق بل سـلمه كل أسرار البلاد ، واستجاب أحمق التتار الأن ذلك وافق مراده ، وكانت الكارثة المؤلمـة بسقوط بغداد عاصمة الخلافة الاسـلامية ، وقتل الخليفة وزوال الخلافة ومقرها من بغداد ، وصيروها بحرا من الدم لكثرة ما قتل من الأطفال الأبرياء ، والنساء على يد هؤلاء البرابرة .

وهل أدل على ذلك الخلاف المذهبى مما حدث بين ابن تيمية الحرانى وقضاة عصره من الشقاق والخلاف الذى أدى بهؤلاء العلماء الى رفع أمره الى السلطان متهمين الرجل بالكفر وخروجه على اجماع الفقهاء ، وذلك بسبب ما نشره فى كتابـه عن (العقيدة الوسطية) والذى كان عبـارة عن رد مطول على خطاب وصله من أحد العلمـاء فى (واسط) سأله أن يبين له عقيدة أهل السنة ، وجمع السلطان ثلاثة مجالس عاجلة لمحاكمة

ابن تيمية وبعد مناظرة تاريخية رائعة من ابن تيميــة لعلمــاء عصره وللأعضـــاء فى مجالس المحاكمة سجلها لنا ابن تيمية فى كتابه (المناظرة فى العقيدة الواسطية) ورغم ذلك سجن الامام.

حتى تاج الدين السبكى صاحب كتاب (طبقات الشافعيــة الكبرى) والمطبوع فى ستة مجــلدات (ت ٧٧١ هـ) وشارح مختصر ابن الحاجب ومنهــاج الوصول للبيضاوى وأكبر خصوم ابن تيمية ، هذا الرجل انقسم العلماء فى أمره منهم من يؤيده ومنهم من يهاجمه ويعارضــه ، وصار السلطان يصلح ويوفق بينهم فيزاد خلافهم حتى أن السلطان خاطبهم بقوله : (لقد كنا نختلف فنحتكم الى العلمــاء ، واليوم يختلف العلماء فيحتكمون الينا) وبالطبع يقول السلطان ذلك شماتة فى العلمــاء ، ومن صالح السلطان وأى سلطان أن يختلف العلماء كى ينشغلوا بخلافاتهم عن معرفة تجاوزات الحكام واصــلاح حال الراعى والرعيــة .

لقد كثرت المذاهب المختلفة فى هذا العصر ، وتعددت الفرق الكلامية ، فقد انتهت الى هــذا العصر كل الثقافات الاسلامية دينية وفلسفية ، وعرف كل ما بذله رجال الدين والفلسفة من محاولات فى حال المشاكل الاعتقادية .

فدعا ذلك الخلاف بين المذاهب طائفة من المفكرين ، الى أن يدرســوا هده المذاهب المختلفة وهده الفرق المتباينه ، وآن ياخدوا من بينها الصحيح الموافق للكتاب والسنه الصحيحة فى نظرهم ، ويتركوا الزائف الباطل •

وقد يرى البعض ان الخلاف فى الرأى والاتجــاه ظاهرة صحية وشيء عظيم ان تتعدد الأفكار والاراء والمشارب من خلال حوار الفرق والملل والنحل المختلفة ولكن ذلك شريطة آن نعرف كيف نختلف وكيف تقبل الرأى الآخر وكيف نتجادل كما أمرنا اسلامنا الحنيف بالتى هى أحسن ، الا أن ذلك لم يتواجد على ساحة هذا العصر ، فقد ثر النزاع والتخاصم العلنى بين الفرق المختلفة ووصــل الى درجة خطيرة لا تحتمل سببت الكثير من الأخطــار على أمن البــلاد ، حتى أن الحروب كانت تعلن فى الشوارع والمدن ، كذلك الثورات بين أهل الفرق المختلفــة ، بسبب الخلاف الذى قد يقع بينهم فى الآراء ، وقد قامت الحروب الطاحنة بين أهل السنة والرافضة مرات عديدة •

وكان أقوى المذاهب انتشارا هو مذهب الأشاعرة الذى سار فى العراق وما جاورها على يد الغزالى ، ولعل (صــلاح الدين الأيوبى) كان من أول المساندين للمذهب الأشعرى ، حيث جعله المذهب الرسمى لمصر والشام ، كذلك ناصرت الأسرة

الأيوبية هذا المذهب وقوته ، كمـا انتشرت فى المغرب العربى على يد (محمد بن تومرت) مؤسس دولة الموحدين بالمغرب الأقصى ، فاليه يعود نشر المذهب الأشعرى وفكر الغزالى وكانا موسومين بالزندقة ويقال ان (ابن تومرت) ذهب الى العراق وأخذ عن (الغزالى) مذهب الأشاعرة ، فلما عـاد الى بلاده ، نشر هذا المذهب فيها ، وأخذ من أتى بعده يعمل على مناصرة المذهب ويؤيده ، حتى أن دولة الموحدين ، كانت تستبيح دم من يخالف عقيدة مؤسسها (ابن تومرت) اذ هو عندهم الامام المعصوم المهدى ، المعلوم . فكان هـذا فى نظر المقريزى هو السبب لانتشار المذهب الأشعرى وانتشاره فى أمصار الاسلام، بحيث نسى غيره من المذاهب ، حتى لم يبق مذهب يخالفـه ، الا مذهب الحنابلة أتباع (الامام أحمد بن حنبل) رضى الله عنه ؛ فانهم كانوا على فكر أهل السلف فلا يرون تأويل ما ورد من الصفات ، حتى جاء ابن تيمية فتصـدى للانتصار لمذهب السلف وبالغ فى الرد على مذهب الأشاعرة كما يرى المقريزى (جـ ٤ من الخطط) .

ولعل انتشار مذهب الأشاعرة فى تلك الفترة وتمكنه فى نفوس العلماء والعامة معا ، واعتقاد الناس أنه هو مذهب أهل السنة والجماعة ، هو الذى حمل (ابن القيم) وأستاذه (ابن تيمية) من قبله على الاشراف على نقد الاتجـاه الأشـعرى ،

وشدة التحامل عليه ، كى يزيل من الأذهان تماما ذلك السلطان الذى كان يتمتع به ذلك المذهب السائد فى معظم البلاد الاسلامية .

ولكن ليس معنى ذلك أنه لم تكن هناك مذاهب أو اتجاهات فكرية أخرى غيره . بل زالت واندثرت ، كلا ، فقد كان هناك بالبلاد الاسلامية بجوار المذهب الأشعرى مذاهب أخرى : كلامية ، وفلسفية متعددة ، فقد كان هناك شيعة رافضة بخراسان وأرض العراق ، وكان هناك كرامية بخراسان أيضا ، وكان هناك زيدية باليمن ، ومتصوفة تقول بالاتحادية أوحدة الوجود أمثال (محيى الدين بن عربى) والشاعر (عمر بن الفارض) وأتباعهما ، كما كان يوجد فلاسفة يعتنقون أفكار (الفارابى) و (ابن سينا) و (الرشدية) ... الخ ، كل ذلك عدا أصحاب الديانات الأخرى من اليهود والنصارى وغيرهم .

وهكذا كان عالمنا المسلم يموج بمختلف الآراء والنظريات ويحفل بما لا يحصى من الفرق والمقالات ، والذى قد انتهت اليه جميع الثقافات كلها من دينية وفلسفية .

الحالة العلمية

قلنا ان الحالة السياسية كانت ضعيفة الى درجة يرثى لها ، وان الحالة الاجتماعية كانت سيئة الى أقصى حد ، فقد كثر

اللصوص واستفحل أمرهم ، وكثر قطاع الطرق ، فزاد السلب والنهب فى البلاد ، بل ان الأمراء استعملوهم ليتوصلوا بهم الى مآربهم ، وعمد الناس الى الغش فى البيع والشراء ، وأصبح التطفيف فى الكيل والميزان سـمة العصر ، وشـاع احتكار الأقوات ، وغير ذلك من العلل الاجتماعيـة ، مما حدا ببعض العلماء أن يطالبوا ويأمروا بفرض التسعيرة الجبرية ، ويؤلفوا الكتب والرسـائل فى هذا المجـال كتبا ورسائل ، ومن هؤلاء العلماء : (ابن تيمية) الذى ألف رسالة بين فيها حرمة احتكار أقوات المسلمين •

وقد ذكرنا أمثلة غير قليلة ، تدلنا على الفساد والاضطراب فى الناحية السياسية ، وأمثلة أخرى تدلنا على مدى التفكك والضياع فى الناحية الاجتماعيـة • وعلى عكس ذلك جاءت الناحية العلمية فقد كانت معبرة عن التقدم والازدهار والنهضة وجاء عصر الموسـوعات أو عصر المجاميـع كما يسميه شيخنا ابراهيم الابيارى •

وقد يعترض معترض قائلا : « أبعد ذلك الضعف والانحطاط تقول : ان هناك حركة علميـة ، أو نهضة علمية ، أو ازدهارا وتقدما فى الحياة العلمية ؟ ! لقد قررت من قبل أن هذا العصر عصر فاسد ، مضطرب فكيف يكون هنـاك نتاج علمى وقد

استعجمت فيه الألسن والعادات ، والأنفس والعقول ، وكثرت الثورات والحروب السياسية ضد المسلمين وجاءتهم المصائب من كل ناحية ، فلم يكن لديهم من الاستقرار والرفاهية ما يمكنهم من الاشتغال بالبحث والتفكير. لقد قل الانتاج العلمى ، وركدت الأذهان ، وأخذ الناس يقلدون من سبقهم فى الأصول والفروع ولم يمكنهم الاجتهاد فى أى فرع من فروع المعرفة من تحقيق أى انجاز له قيمته العلمية ، اعتنق الناس مذهب الأشعرى وحرم الأخذ فى الأصول بغير المذاهب الأربعة ، وألغى العقل تماما ، وعمد العلماء فى ذلك العصر الى الجمع من كتب السابقين ، والسير على نظامهم فى التأليف ولكن لم يكن هناك أى أثر للتجديد والابتكار فى نتاجهم » .

أنا معك — أيها الصديق — فى ذلك ، ولكن لا تنكر أنهم ساروا على نظام السابقين فى التأليف سيرا حسنا ، وسلكوا مسلكا جيدا فيه ، فجمعوا المباحث المتعلقة بكل فن فى سلك واحد وكتبوا فى ذلك المؤلفات الضخمة ، أحيانا والمختصرة أحيا أخرى ، ألا يكفيك أيها الصديق أن يكون هذا العصر رغم كل عيوبه عصر السيوطى ، وابن خلكان ، والكتبى ، والصفدى ، والأدفوى ، عصر ابن القيم وابن تيمية أستاذه ، وابن أبى أصيبعة والذهبى ، والعسقلانى ، والمقريزى ، وابن اياس ، وأبو المحاسن ، وابن منظور ، وابن فضل الله العمرى ،

والنويرى وابن خلدون والقلقشندى والماوردى .. الخ .. الخ من أعيان عصر الموسوعات وأعلامه .

أن دور هؤلاء العلماء أعظم ما يمجد أو يثنى عليه ، ففى الوقت الذى جرد الجنود المشتتة من أسلحتهم ، والجمت ألسنة وعقول رجال السياسة ، فقد كانوا أعجز من أن ينهضوا بالدور ، ومن ثم كانت الظروف التاريخية تصنع المسئولية ، وتهيىء لدور العلماء الذين أسرعت أيديهم فى شوق أصيل ، وعشق جارف ، ولهفة تحدوها رغبة مخلصة فى انقاذ تراث الأجداد العظام ، أسرعت الأيدى الطاهرة تلم ما بعثره المغول فى الشرق أو الأسبان فى الغرب من رصيدنا الفكرى والثقافى ، وتضم بعضه الى بعض ، لتصنع البديل أو العوض العلمى عن المجد السياسى الذى ضاع ، والتمزق الاجتماعى الذى شاع ، والانهيار الاقتصادى الدى عم وانتشر ، لتصنع منه قبل هذا سياجا روحيا نقيا ، سياجا فكريا يحمى وجدان الأمة ويصون نفسيتها من الانحلال والتفتت .

فى هذا العصر عصر ما بين الضربتين ترددت فى قلب العالم العربى عشرات الاسماء من الاعلام الكبار الذين فجرت المحنة فى وجدانهم الوعى بحركة التاريخ ، فشرعوا يجمعون ويوثقون كل ما بعثرته الأحداث الجسام من أمجاد آمتنا

الاســلامية ، ومن تاريخ فكرها ، وسـير رجالها ، ثم ارتقى احساسها بالتاريخ فبحثوا فى فلسفته ، وفى أسرار حركته •

ان من يقرأ مؤلفات هذا العصر الموسوعية يرى أن الجهد لم يقتصر على الجمع ولم الشتات فقط بل يرى جهد التصويب والبحث والاستنتاج وعلى القارىء أن يقرأ قراءة واعيـة ؛ ليخرج بها بمذهبه الذى يراه ، يختار منها ما يتفق مع عقله وتفكيره وهى نفس الطريقة التى أخرجت لنا علماء أجلاء كانوا بدورا أضاءت وجنات هذا العصر المدلهم •

ليس معنى الضعف العلمى أو الجمود الفـكرى انعدام الرجاء فى النهوض والرقى ، ولا يعنى عدم توثب بعض العلماء النابهين الذين يوجدون دائمـا فى كل عصر ، كلا ، فقد وجد فى هـذا العصر علمـاء أجلاء غير الذين سبق وذكرنا بعضهم مثل : البيضاوى ، والصفى الهندى ، وتقى الدين السبكى ، والشيرازى ، وابن دقيق العيد ، والسبكى وغيرهم •

ولنحدد أكثر ما نقول : ما الأسباب التى أدت الى تقدم وازدهار ونهضـة هذا العصر عصر الموسـوعات والمجاميع من الناحية العلمية رغم سوء الأوضاع السياسية والاجتماعية ؟ !

١ ــ هجرة العلمـاء من الشرق حيث بطش المغـول ،

والغرب جيث بطش الأسبان الي مصر والشام وجنوب المغرب حيث لا مغول ولا أسبان •

٢ ــ كثرة دور العلوم الممثلة فى المدارس ــ والتى أنشئت قبل عصر المماليك ــ والمساجد والمكتبات وذيوع أمرها فى عصر المماليك •

فنحن نعرف مدرسة برقوق فى بين القصرين ، والمدرسة الجمالية التى بناها الأمير جمال الدين الاستادار فى عهد السلطان فرج ، ومدارس الأشرف برسباى الثلاث في سرياقوس والقاهرة ، والصحراء •

كما عرف هذا العصر المساجد ، والجوامع التى قامت بدور وافر فى هذا المجال ــ مجال التعليم والثقافة ــ مثل الجامع الأزهر الشريف والذى اتخذ منه صلاح الدين الأيوبى مركزا لنشر المذهب السنى ، ومثل الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) بفسطاط مصر ، وجامع الحاكم بباب الفتوح • وغيرها من المساجد التى كانت تجتمع فيها حلقات الدرس فى مختلف العلوم الدينية والعربية والتاريخ •

٣ ــ كثرة الأوقاف الخيرية الموقفة على المعلمين والمتعلمين ــ فقد تسابق أهل هذا العصر من سلاطين وأمراء

وأهل بيوت وأثرياء وعلماء وتجـار وحرفيين الى انشاء دور العلم والوقوف عليهـا تقربا الى الله تعالى كما يذهب المقريزى (خطط المقريزى ٣/٣٤١) .

٤ ـ لهفة المؤلفين على الجمع الموسوعى ليعوضـوا به ما أتلفته يد المغول التترى ، ويد الغرب الصليبى . فقد ثبت أن أحد الكرادلة فى أسبانيا فى أواخر القرن التاسع أتى على مكتبة غرناطة والتى كان بها من المجلدات ما يربو على الثمانين ألف مجلد احراقا (تراث الانسانية ٢/٦٣٠) هذا بالاضـافة الى ما فعـله المغول فى تراث المسـلمين بعد ما سـقطت بغـداد سـنة ٦٥٦ هـ .

حقا « لقد كانت البلاد الاسلامية ممزقة بين التتار والمغول فى الشرق ، والمماليك فى مصر والشام ، والبربر فيما وراء مصر الى المحيط الأطلسى ، فكانت البلاد فى حالة يرثى لها ، يتولاها فى غالب الأمر ما لا يمت اليها بصلة أو نسب ، ولا يجمعه بهـا لغة ، فاستعجمت الألسن ، وضعفت اللغة العربية ، والسـيادة الاسـلامية ، ولولا أن الاسـلام هو دين القوم ، والقـرآن قانونهم ومرجع أحكامهم ، والقوم مضطرون فى سبيل قيـادة هذه الشعوب الى أن يجعلوا للقرآن وعلومه المكان الأول ، لولا ذلك لزالت العربية ، ومحيت آثارهـا ، حتى أن لغـة

التخاطب ولسان الحكومة الرسمى فى بعض الممالك الاسلامية كانت الفارسية أو التركية ، ولكن العربية ظلت لغة التأليف » (الأدب العربى وتاريخه ، جـ ٢ ـ لمحمد مصطفى ص ١٨٢) .

ولكننا مع ذلك نجد نشاطا فى التأليف ، واظهارا لكتب جامعة فى كل علم ، وموسوعات ضخمة تشمل الكثير من العلوم والمعارف ، وذلك بسبب نكبة البلاد بالمغول ، وحرقهم للمؤلفات العلمية ، ورميهم اياها فى البحر ، فحفزهم ذلك الى جمع المتفرق، واحياء المدارس ، لتعويض ما فات .

لقد ذكرنا الكثير من هؤلاء العلماء من رواد الموسوعات وقد آن الأوان كى نعرف ببعضهم ، ونرى الى أى حد قد طرقوا جميع ألوان الفكر والمعرفة ، وكتبوا فيها المؤلفات الكبيرة سواء كان ذلك فى التاريخ الاسلامى ، أم فى فروع اللغة العربية وعلومها ، أو علم الكلام ، أو التفسير والحديث .

وسوف نركز على بعض من علماء التاريخ الاسلامى .

الكـــافيجى

مـؤرخ اهمـله التـاريخ

مع أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) عندما زادت المـادة التاريخية نتيجة استقرار دواوين الدولة العباسية، خاصة دواوين الانشـاء والجنـد والخراج والبريد ، أمكن للمشتغلين بعلم التأريخ الانتفـاع بما فى هذه الدواوين من معلومات قيمـة ، لذلك يلاحظ القـارىء الدارس أن كتابات تواريخ القرن الثالث احتوت على عهود رسـمية ومراسـلات سياسية واحصاءات للمواليد والوفيات ومعلومات وافية عن كبار رجال الدولة من الوزراء والقادة وعمال الولايات ، يضاف الى ذلك ما شاهـده ذلك العصر من نشـاط حركة الترجمـة عن الفارسـية ، والسريانية ، واليونانيـة ، واللاتينية وغيرها من اللغات . كما أن سهولة الانتقال فى انحاء الدولة الاسـلامية دفعت الكثير من طلاب العلم والمؤرخين الى الرحلة فى طلب الرواية ورؤية عجائب البـلاد ومشـاهدة آثارها ، لهذا كانت مصادر التاريخ عند العرب فى القرن الثالث الهجرى أربعة هى :

(أ) كتب السيرة والأخبار .

(ب) السجلات الرسمية .

(جـ) المؤلفات المنقولة عن اللغات الأجنبية .

(د) المشاهدة والمشافهة [1] .

وعندما كثرت المادة التاريخية اتجه الكثير من العلماء ، وثقات الفقهاء لدراسة التاريخ والتأليف فيه ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع على أنه من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأنا . وارتفع شأن المؤرخين بين علماء الدول الاسلامية [2] .

ومنذ القرن الثالث الهجرى عندما أصبح علم التاريخ علما مستقلا نجد اتجاهات معينة لكتب التاريخ . وبدأنا نطالع مؤلفات لأعلام تعد من مصادر وأمهات كتب التاريخ :

- فتوح مصر والمغرب لعبد الرحمن بن الحكم المتوفى (٢٥٧ هـ) .

- كتاب القضاة للكندى المتوفى (٣٥٠ هـ) .

---

(١) دراسات فى علم التاريخ ومناهجه للاستاذين الدكتورين : سيد الناصر ، وحسين ربيع . من ص ١٢٥ الى ١٣٤ (كلية الآداب - القاهرة - سنة ١٩٧٧) .

(٢) تاريخ التاريخ للأستاذ المرحوم/ على ادهم - سلسلة (كتابك) دار المعارف القاهرة (بتصرف) .

- تاريخ بغداد واعلامها للخطيب البغدادى المتوفى (٤٦٣ هـ) .
- تاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى (٥٧١ هـ) .
- البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى (القرن السابع) .
- تجارب الأمم لابن مسكويه .
- الكامل فى التاريخ لابن الأثير .
- المختصر فى أخبار البشر (٤ أجزاء) لأبى الفداء .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى المتوفى (٣٤٦ هـ) .
- جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الهمذانى المتوفى (٧١٨ هـ) .
- مقدمة ابن خلدون المتوفى (٨٠٨ هـ) .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى المتوفى (٨٤٥ هـ) .
- عقد جواهر الاسفاط من أخبار مدينة الفسطاط للمقريزي .

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزى .
- السلوك لمعرفة دولة الملوك للمقريزى .
- أنباء الغمر فى أبناء العمر للعسقلانى المتوفى سنة (٨٥٢ هـ) .
- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان لأحمد العينى المتوفى (٨٥٥ هـ) .
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لأبى المحاسن ابن تغرى بردى المتوفى (٨٧٤ هـ) .
- حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور لأبى المحاسن ابن تغرى بردى .
- نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان لأبن الصيرفى المتوفى (٩٠٠ هـ) .
- التبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى المتوفى (٩٠١ هـ) .
- الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوى .
- بدائع الزهور فى وقائع الدهور لأحمد بن اياس المتوفى (٩٣٠ هـ) ... الخ ... الخ .

هذه القائمة من الأعمـــال والأعلام والتى تصـــل بنا الى القرن الخامس عشر الهجرى تخلو من مؤرخ أهمله التاريخ انه الكافيجى !! •

ولا نكون على درجة من المبالغة اذا زعمنا ان الكافيجى لم يأخذ حظه من الدرس والتحليل لدى من يتصـــدى للتأريخ لمن كتبوا التاريخ ، فللرجل دور كبير وبارز رغم ما نلمحـــه من ســـلب أو ايجاب فى منهج التأريخ الخاص به فانه يستحق البحث والتمحيص •

الكافيجى : يعلل الزركلى سبب تسمية الرجل بالكافيجى لكثرة اشتغاله بالكافية فى النحو •

اسمه بالكامل : محيى الدين محمد بن سليمان الكافيجى، أصله من منطقـــة تسمى (كوك جاكى) فى الأناضول التركية المسلمه ، ولد الرجل على حد روايته فى سنة (٧٨٨ هـ) وتوفى (٨٧٩ هـ) أى أنه توفى وعمره يناهز الـ ٩١ عاما وقد يكون فى روايته عن تاريخ مولده بعض المبالغة •

ويرجع الزركلى مولده الى سنة (٧٨٨ هـ) ووفاته الى (٨٧٩ هـ) وهو يردد نفس قول الكافيجى ، بينما يقول السيوطى فى (حسن المحـــاضرة) انه ولد قبل سنة (٨٠٠ هـ) وتوفى

(٨٧٩ هـ) ، ويقول صاحب الفوائد البهيـــة ان وفاة الكافيجى كانت سنة (٨٧٣ هـ).

السخاوى يردد اســم الكافيجى فى ضــوئه اللامع ومن طريقـــة حديث السخـــاوى يهيأ لنا أن الرجـــل كان « معلمـــا شعبيا » [٣] على حد تعبير (فرانز روز نشال) وهذا ما يؤكد لنا كل من ذكر الكافيجى ضمن تراجم رجـــال القرن التاســـع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) .

للكافيجى عدة مؤلفـــات يتواجد جلها كمخطوطات بدار الكتب المصرية ، غير أن معظمها قصير ولم ينشر منها حتى الآن شىء يذكر الا أن أشـــهرها على الاطـــلاق « المختصر فى علم التـــأريخ » ولا ننسى هنـــا الجهد المشـــكور الذى قـــام به (فرانز روز نشال) فى كتابه المهم والمعنون بـ (علم التاريخ عند المســـلمين) [٤] والذى ترجم فيه كتاب الكافيجى للغـــة الانجليزية رغم أن (فرانز) ألمـــانى الجنسية وقد ترجم كتاب (فرانز) الى العربيـــة الدكتور/صالح أحمد العلى (عراقى) وراجعه الأستاذ/ محمد توفيق حسين (عراقى) .

---

(٣) راجع قصيدة الشهاب المنصورى فى رثاء الكافيجى والمعروفـــة باسم (الجيمية) ليتأكد دور الرجل كمعلم شعبى فى نفس الدراسة .

(٤) هذا الكتاب الفه (فرانز روزنشال) وقام بترجمته د. صالح العلى بتصريح خاص من مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر (اغسطس ١٩٦٣ م) .

كتاب « المختصر » كتب حوالى (٨٦٧ هـ) وبالرغم من حداثة تاريخه نسبيا ، فانه يعد من أقدم الرسائل الاسلامية المعروفة لدى الباحثين عن التاريخ كعلم وكنظرية فى تاريخنا الاسلامى . واذا وجدنا عن هذا الموضوع رسائل أو كتب أقدم تاريخا من مختصر الكافيجى فهى ـ وللأسف ـ لم تخرج للنور وان كنا نشك أساسا فى وجود رسائل أو مؤلفات تعالج التأريخ كعلم أو كنظرية .

وقد يعترض معترض علينا ويسألنا فى دهشة استنكارية : وأين ابن خلدون وجهده الجاد ؟ والحقيقة ان ابن خلدون فى مقدمته اعتبر فى عرف العلماء كاتبا لكتاب مستقل ، بمعنى أن المقدمة تعد كتابا مستقلا فى حياة ابن خلدون والذى أطلق على موضوع الكتاب الأول منها علما مستقلا . ومع هذا فقد أريد « بالمقدمة » أن تكون مقدمة لتأريخ عظيم ، وكانت تبحث فى التاريخ كتاريخ وكفلسفة ، ولا تبحث فى كتابة التأريخ الا بصورة غير مباشرة .

لقد حاول الكافيجى فى عصر الموسوعات أن يكتب « مختصره » كى يظهر فى المقام الأول اهتمامه بمعالجة نظرية للتأريخ دون غيرها من الأمور . ويمكن القول ولأول وهله بأن رجلنا لم يحالفه التوفيق الى حد كبير ، فالنصف الثانى من

الصفحات العشرين من المخطوطة والموجودة بدار الكتب المصرية ملىء بالقصص ، التى تحتـاج الى تمحيص ، وهذه القصص يهدف منها المؤرخ أن يوضح لنا أمورا نظرية بحتة ، وهو فى هذا مثله مثل معظم مؤرخى هذه الحقبة ، وفى الواقع ان معظم هذه الروايات القصصية مجرد أمور خيالية عادية ، مجرد حكايات بعضهـا متداول لدينـا وبعضها مبالغ فيه مثل حديثـه عن الأنبياء والملائكة والرسل ، ونحن نقول : مبالغ فيه لأنه لا يتفق مع ما عرفناه وتعلمنـاه من القرآن الكريم والسنة المطهرة عن الأنبيياء البررة والملائكة .

حكايات الكافيجى تنتهى الى آخر كتابه حيث يعطينا بعض المعلومات التاريخية . واذا كان النصف الثانى من المختصر مليئا بمادة لا قيمـة لها من وجهة نظر التمحيص العلمى ، فان القسم الأول من الكتاب يعوض لنا تماما نقائص القسم الثانى .

كتـاب « المختصر فى علم التأريخ » أو « مختصر عـلم التأريخ » هو أشهر كتبه الجديرة بالاعتبار لأصالة طريقتـه ، وجودة كتابته ، وهو يتبع النظـام المـألوف فى التعريف العلمى يرجع به الى الفلسفة الأرسطوطاليسية ، ولعله يذكرنا على الفور بخطط المقريزى الذى يبدأ صفحاتها هو الآخر بثمان مسـائل « أرسطوطاليسية » . ولعلنا نكون على صـواب اذا قلنا ان

مصدر الالهام المباشر فى هذا المضمار هو طريقة البحث الفقهى فى الدراسات الاسلامية .

لقد أجاب الكافيجى فى مختصره عن بعض المسائل المتعلقة بخصائص علم التأريخ وغرضه ، وهدفه ، وفوائده . غير أنه كرس مجالا أوسع للمعضلات الناجمة عن غموض كلمة « تأريخ » العربية ، وعن مركز علم التأريخ فى العلوم والدراسات العربية والاسلامية .

لم يكن الكافيجى مؤرخا محترفا بمعنى الكلمة ، ولا يبدو أنه كان مهتما بموضوع الاحتراف هذا ، وهو لا ينشد اهتماما بحتا بهذا العلم ، ولكن ذلك لا يقلل من محاولته التنظيرية فى هذا الميدان .

وللكافيجى كتاب آخر ذكره بعض رجال الاستشراق ، وهذا الكتاب يبدو أنه قد اهتم فيه بالمشاكل التاريخية البحتة وأقصد كتاب « النصر القاهر ، والفتح الظاهر » ولم أتمكن بعد بحث مرهق من العثور على مخطوطته فى خزائن دار الكتب المصرية ، أو مكتبة جامعة الأزهر الشريف أو معهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

لقد كان صاحبنا يعتبر فى زمانه ريحانة معرفة ، ثقة فى العلوم العقلية (غير الدينية) وان كان ذلك لا ينفى عمقا معرفيا

فى فكره بعلوم القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية المطهرة ، والفقه وغيره ، ولعل معارفه العقلية كانت شغله الشاغل الذى حرص على اظهاره والاعتراف به .

ولابد من الاعتراف العلمى الصريح فى هذا المجال بأن أفكار الكافيجى عن علم التأريخ كما نستشفها من مختصره ، كان لها الأثر الأكبر على السخاوى مؤرخنا « المشاكس » لمعاصريه ، فلولا كتاب « المختصر فى علم التأريخ » لما كان بالامكان ظهور كتاب « الاعلان بالتوبيخ » للسخاوى . فان المسائل التاريخية ، وطريقة عرضها فى كلا الكتابين متفقة تماما . ولا يوجد مبرر لأى محاولة افتراضية تدعى وجود مصدر مشترك لهما . غير أنه قد يكون من الخطأ ذم السخاوى لعدم تقديره المناسب لكتاب الكافيجى وجهوده العلمية ، فالسخاوى « حزب معارضة دائم » لسابقيه ومعاصريه. كان السخاوى يحاول أن يملك نفسه ويحاول أن يعطى حلولا جديدة للمسائل التى آثارها غيره ، سواء أكان الكافيجى أم سواه .

كان السخاوى واضحا فى مسائله كلها بينما كان عرض الكافيجى شديد الايجاز . ونظرة عابرة على عناوين مؤلفات الرجلين تؤكد لنا هذا . ولا ننكر أن السخاوى — رغم ثرثرته

الكثيرة ــ قد ملأ فراغا كبيرا لنواحى علم التاريخ فى العلوم الاسـلامية •

ويبدو أن صاحبنــا ــ الكافيجى ــ كان سيىء الحــظ فابداعه لم توازه موهبة أدبية مواتية فى فن التعبير الأدبى ، فكل ما يقوله من ملاحظات تبدو وكأنها رؤوس أقلام ــ على حد تعبير الاخوة فى العراق ــ محاضرات ألقيت على مجموعة طلاب للفقه • مع ملاحظة الاصطلاحات الفنية التى كانت شائعة فى عصر الكافيجى الموســوعى وهى اصطلاحات فقهية بحته •

واذا حاولنا استشفاف المعنى المضبوط لنص « المختصر » يبقى فى بعض الأحيان غامضابالنسبة لنا ، وهذا يرجع ــ فى اعتقادنا ــ الى أن الرجل عالم ، ولا ضرر ولا ضرار أن تخون العالم قدرات التعبير الواضح عن نفسه • غير أن أفكاره تبدو هى الأخرى غامضــة !! ولعل علة ذلك أن هــذه الأفكار لم تأخذ حظهــا من النضــخ والاستواء فى ذهن موســوعى مثل الكافيجى •

أعود الى مخطوطة « المختصر فى علم التــأريخ » وهى مرجعى فى الحديث عن علم التأريخ فى فكر الكافيجى ، أجدها قد كتبت بعد أيام ثمانيــة (فقط) من تاريخ انتهاء مؤلفها من كتابتها فى سنة (٨٦٧ هـ) • ويبدو أن أجدادنا كانوا لا يعانون من أزمة نشر وخامات طباعة (نسخ) كما فى أيامنا الصعبة هذه•

نقلب فى مخطوطة الكافيجى لنعثر على اسم ناسخ المختصر انه تلميذ بار من طلاب على الكافيجى اســمه : على بن داوود الجوهرى المؤرخ الذى ولد ســنة (٨١٩ هـ) وتوفى ســنة (٩٠٠ هـ) ، وحدثنا عنه ابن اياس فى بدائع الزهور (الجزء الثانى) ، كما حدثنا عنه بروكلمان فى تاريخه الا أنه ــ وكالمعتاد ــ نجد السخاوى يجعل من هــذا الرجل شخصية رديئة جدا دون أدنى مناسبة . !!

وفى معهد المخطوطات العربيــة بالقــاهرة أجد صــورة فوتوغرافية وهى طبق الأصل لصورتين متواجدتين فى مكتبة « أياصوفيا » التركية هذه المخطوطة نسخت فى يوم الخميس الموافق ٢٣ من شهر شعبان لسنة ... ؟؟ لم أتمكن من قراءة السنة أو بقية الكتابة ، ولعلها تكون نفس السنة التى ألف فيها المختصر ، غير أن يوم الثــالث والعشرين من شعبان ســنة (٨٦٧ هـ) يوافــق ١٣ من مايو سنة ١٤٦٣ م يصــادف يوم جمعــة !! ؟؟ .

ونلاحظ أن النسخة المخطوطة التى كتبها الجوهرى كتبها لاستعماله الخــاص كما يتجلى ذلك من خطها الردىء جدا .

أما النسختان المتواجدتان فى تركيا فكاتبهما تلميذ آخر للكافيجى يدعى يحيى بن محمــد الدمسيسى ، والذى ولــد

سنة ٨٢٣ هـ ، وكان هو الآخر مثل على بن داوود الجوهرى مؤرخا وتلميذا ودودا للكافيجى والشىء المثير للدهشة أن الدمسيسى ظل على علاقة وطيدة وقوية بالسخاوى ، بعكس الجوهرى . وعندما كتب السخاوى ضوءه اللامع كان الدمسيسى حيا يرزق ، فحظى بقسط وافر من مديح السخاوى على غير العادة السخاوية (الضوء اللامع جـ ١) .

ويتضح من نسخة الدمسيسى أنها نسخت للنشر (للبيع) ، ولذلك كتبت بخط واضح ، جيد ومقروء ، والكتابة الرديئة فى نسخة الجوهرى لا تعنى جودة النص ، فالنص مفكك مكتظ بالأخطاء الاملائية واللغوية والأسلوبية ، عكس نسخة الدمسيسى .

حديثنا عن الكافيجى هذا لا يغنى عن دراسة عميقة نحن فى أمس الحاجة لها كى نظهر دور هذا الرجل الموسوعى .

يقول السيوطى عنه (محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومى الحنفى ، محيى الدين ، أبو عبد الله الكافيجى) ، ويمتدحه السيوطى (٥) مؤكدا أنه تلقى العلم فى حلقته ، ويصفه

---

(٥) يقول السيوطى فى حسن المحاضرة أن وفاة الكافيجى كانت ٨٧٩ هـ ، ويجدر بالذكر أن السيوطى لازم الكافيجى ١٤ سنة ، واشاد السيوطى كثيرا باستاذيته .

بالمحقق ، علامة الدنيا ، أو علامة الوقت وأستاذ الدنيا فى المعقولات .

تلقى الكافيجى علومه على يد البرهان حيدرة ، والشمس ابن العترى وغيرهما من جهابذة العلم فى تلك الفترة التى عاشها . وتقدم فى فنون المعقول حتى صار امام الدنيا ، صاحب التصانيف العديدة .

وجميع أعمال الكافيجى ما زالت مخطوطة لم تر النور حتى الآن وها نحن أولاء نقدمها للمحققين لعلها تجد من يتصدى لها ويعرف بها الأجيال المتعطشة لمعرفة المزيد من تراث الأجداد :

١ ــ مختصر فى علم التأريخ .

٢ ــ أنوار السعادة فى شرح كلمتى الشهادة .

٣ ــ منازل الأرواح .

٤ ــ معراج الطبقات .

٥ ــ قرار الوجد فى شرح الحمد .

٦ ــ نزهة المعرب فى النحو .

٧ ــ التيسير فى قواعد التفسير .

٨ ــ حل الأشكال (فى الهندسة) .

٩ ــ الأحكام فى معرفة الايمان والأحكام .

١٠ ــ الالمـاع بافادة (لو) الامتناع .

١١ ــ جواب فى تفسير : « والنجم اذا هوى .. » .

١٢ ــ مختصر فى علم الارشـاد .

١٣ ــ شرح كتاب ابن هشام فى النحو .

وكانت وفاة الرجل ليلة الجمعة رابع جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وثمانمائة أى بعد عامين فقط من سقوط الأندلس المسلمة (٦) . وقد رثاه الشـاعر المشهور على عصره الشهاب المنصور بأبيات (جيمية) منها :

بكت على الشيخ محيى الدين كافيجى
عيوننـا بدمـوع من دم المهـج

كان أسـارير هـذا الدهر من دور
تزهى فبـدل ذاك الدر بالسـح

(٦) تولى الكافيجى فى حياتـه عدة وظائف حكوميـة ابتدأت بمشيخة الشيخونية وانتهت برئاسته للمذهب الحنفى بالقاهرة المملوكية .

فكم نعى بسماح من مكارمه
فقرا وقوم بالاعطاء من عوج

يا نوع علم أراه اليوم منطفئا
وكانت الناس تمشى منه فى كرج

فلو رأيت الفتاوى وهى باكية
رأيتها من نجيع الدمع فى لجج

ولو سرت بثناء عنه ريح صبا
لاستنشقوا من شذاها أطيب الأرج

يا وحشة العلم من فيه اذا اعتركت
ابطاله فتوارت فى دجى الوهج

لم يلحقوا شأو علم من خصائصه
أنى ورتبته فى أرفع الدرج

قد طال ما كان يقربنا ويقرئنا
فى حالتيه بوجه منه مبتهج

سقياله وكساه سنا
من سندس بيد الغفران متشح

وختاما كان معى فى حديثنا عن الكافيجى الضـوء اللامع للسخاوى (٢٥٩/٧) ، مفتاح السعادة (٤٥٤/١) ، الشقائق النعمانية بهامش ابن خلكان (٦٨) ، بغية الوعاة للسيوطى (٤٨) ، بدائع الزهور لابن اياس (١٥٢/٢) ، حسن المحاضرة للسيوطى (٣١٧/١) ، شذرات الذهب (٣٢٦/٧) ، الفوائد البهية (١٦٩) (٧) .

رحم الله الكافيجى وجزاه خيرا عما قدم للعلم وللاسلام .

---

(٧) سبق لكاتب هذه السطور كتابة دراسة عن الكافيجى بعنوان : (الكافيجى : مؤرخ أهمله التأريخ) ونشرت بمجلة (منبر الاسلام) الصادرة عن المجلس الأعلى للشئون الاسلامية (مصر) ـ عدد رجب ١٤٠٥ هـ ـ الصفحات من ٦١ ـ ٦٥ .

مؤرخ بين الخطط والملوك :

أحمد بن على المقريزى

المقريزى تلميذ مخلص لفكر ابن خلدون ، واسمه أحمد بن على المقريزى كان مولده بالقاهرة عام ١٣٦٤م ، بحارة برجوان والتى ما زالت كائنة بقسم الجمالية فى القاهرة القديمة ، والمقصود بالحارة هنا الفندق أو الخان أو الوكالة على حد التعبير المصرى فى هذا العصر ، أو العمارة الكبيرة فى عصرنا ، ولايزال استعمال لفظ الحارة بالمعنى القديم موجودا فى الشام .

جاءت أسرة المقريزى الى القاهرة من بعلبك اللبنانية فى حياة أبيه على ، وأصل هذه الأسرة يرجع الى حارة المقارزة فى لبنان .

ويرى أستاذنا د. مصطفى زيادة رحمه الله أن هناك شبها ملحوظا بين هذه التسمية ولفظ مقريزى وهى جهة فى ايطاليا

قرب روما ، ويرجح أن تلك الحـارة البعلبكية كانت سـكنا لجالية من الجاليات الايطالية التى وفدت للتجـارة ببلاد المشرق زمن الحرب الصليبيـة ، وأن أسرة المقريزى اكتسبت هـذه التسميـة لحلولهـا بتلك الحـارة بعد خلوهـا من سكانهـا الأصـليين .

ومهما يكن فالمعروف المؤكد أن أحمد بن على المقريزى نشأ نشأة قاهرية ، بناحية من أعظم نواحى قاهرتنا امتلاء بالعمران والصخب وضوضاء الحياة ، وأن جده لأمه ، واسمه ابن الصايغ الحنفى تولى تعليمه ، لضيق حال والده على فيما يبدو قبل أن يصبح من أصحاب العقار والأملاك .

وأخذ الجد ينشىء الحفيد على أصول الحنفية ، وانكب هو على الدرس والتحصـيل تحت ارشـاد أساتذة عصره ، وأظهر نجابة ومقدرة .

ثم مات الجـد سـنة ١٣٨٤ م ، فترك المقريزى مذهب الأحناف وانتقل على وجه السرعة لدراسة مذهب الشافعية ، دارسا الفقة دراسـة واسعة عميقة ، وأخذ يهاجم الأحناف في عنف مستغرب استوجب لوم معاصريه له .

والتحق المقريزى بالخدمة الحكومية ، فكان أول عهده بها موظفا فى ديوان الانشاء بالقلعة ، حيث ظل يعمل كاتبا (موقعا)

حتى سنة ١٣٦٨ م ، ثم غدا بعد ذلك نائبا من نواب الحكم أى قاضيا عند قاضى القضــاة الشافعية ، فاماما لجــامع الحــاكم بأمر الله ، ومدرسا لعلم الحديث بالمدرسة المؤيدية ٠

فى سنة ١٣٩٨ م أختاره السلطان برقوق المملوكى وكان حفيا به مشجعا اياه ، اختاره لوظيفــة محتسب القاهرة والوجه البحرى ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين فى عامين ٠

فى أثناء ذلك تزوج المقريزى وأنجب ، والمعروف أن بنتا له ماتت بمرض الطاعون الذى اجتاح القاهرة المملوكية وسائر البلاد المصرية سنة ١٤٠٣ م ٠ ويصدر القرار بنقل المقريزى الى دمشق الســورية ، ليتولى النظر فى الأوقاف ، وليقوم بتدريس علم الحديث الشريف بالمدرستين : الأشرفية والاقبالية فى دمشق٠

قرار آخر يصدره فرج بن برقوق بتولية المقريزى منصب النائب للحكم بدمشــق ، استيفاء لشرط الواقف (الأوقــاف القلانسية والمــارستان النورى) أن يكون الناظرون على أوقافها قضــاة بها ٠

ورغم أن السلطان هو صاحب هذا القرار فان المقريزى رفض المنصب معتذرا ٠ ويظهر أن مؤرخنــا ســئم الوظائف الحكومية وهمومها ، بالاضافة الى أنه أصبح فى بحبوبة من المعيش تمكنه من اعتزال الوظائف ، ولا ننسى انه ملك من

الموارد ما أغناه عن اضاعة الوقت فى كسب العيش ، عن طريق الحكومة والحكام .

ترك المقريزى دمشق وأعماله بعد اقامته فيها عشر سنوات، وعاد للقاهرة خاليا من عمل أو وظيفة ، ليتفرغ للدرس والعلم ، ولاسيما علمه المفضل التأريخ .

فى سنة ١٤٣٠ م يرحل المقريزى وأسرته الى مكة كى يؤدى فريضة الحج ، ومكة ليست بغريبة عليه ، فقد جاور فيها ابان طلبه العلم ، بيد أنه ظل مقيما بها تلك المرة الثانية حتى سنة ١٤٣٥ م (٥ سنوات) واشتغل بمكة فى تلك الأثناء بتدريس علم الحديث وبالتأليف فى علم التأريخ .

عاد المقريزى بعد ذلك الى القاهرة ، ليمضى بقية حياته بحارة برجوان التى ما برح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات ، ويتضح لنا من كلام أبى المحاسن فى كتابه النجوم الزاهرة (٢١٨/٨) أن المقريزى جعل من منزله مكانا لاستقبال تلاميذه ، وصومعة يؤلف فيها الكثير فى مختلف علوم عصره .

بدأ النشاط العلمى للمقريزى بعمل ضخم الا وهو تاريخ القاهرة الذى نعرفه بـ (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، وهو كتاب عنى فيه المقريزى بدراسة الخطط حتى

عرف بهذه التسمية حتى الآن ، وكان تأليفه اياه ما بين عامى ١٤١٧ م و ١٤٣٦ م (١٩ عاما) .

على أنه يظهر ان المقريزى اعتمد الى حد كبير فى تأليف خططه الزاخرة ـ والذى يعد بشهادة جل المؤرخين والباحثين فخر أعمال المقريزى ـ اعتمد على كتاب صنفه المؤرخ المسلم : الأوحدى : فنقل منه دون أدنى اشارة أو اعتراف بأخذه منه ، لذلك رماه السخاوى مؤرخنا المشاكس من أجل ذلك بقوله فى (التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٢٢) ان كتاب الخطط للمقريزى مفيد لكون المقريزى ظفر بمسودة الأوحدى فأخذها وزودها زوائد غير طائلة .

ويذكر السخاوى فى كتابه الضوء اللامع (٣٥٨/١) ان الأوحدى كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها ، وأفاد وأجاد ، وبيض بعضها ، فبيضها تقى الدين المقريزى ونسبها لنفسه مع زيادات . (الضوء اللامع ٣٥٩/١) .

ويقول السخاوى ان المقريزى اعترف بانتفاعه بتلك المسودات . ولم يستطع علماء التاريخ من أهل الاستشراق أن يدفعوا هذه التهمة تماما عن المقريزى ، كما لم يستطع أحدهم أن يدلى برأى حاسم فى ذلك .

وها هو ذا المستشرق كاترمير الفرنسى فى كتابه الموسوعى (المماليك) يقول : انه من الفطنة والصواب أن نسكت عن هذه القضية ، وأن نحذر الحكم فيها برأى قاطع !!

والمقريزى نفسه لم يستطع أن يدلى فى سياق الرد على هذه التهمة من قوله : حسب العالم أن يعلم ما قيل ويقف عليه !!

والقارىء لكتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) يمكن له العثور على شواهد فيه تؤدى بالقارىء للشك على الأقل ، ومنها خلو بعض كتب المقريزى المتأخرة من عبارات واردة بكتاب الخطط ، مثل أدلائه فى نسب الأكراد والأيوبيين برأى مهم ، وعدم تكراره لهذا الرأى على أهميته فى كتاب السلوك .

ومن الأمور الداعية للشك أيضا ما جاء بالمواعظ بصدد رباط البغدادية للنساء بالقاهرة ، حيث ورد ما نصه :

« وآخر من أدركنا فيه الشيخة .. فاطمة بنت عباس البغدادية ، توفيت فى ذى الحجة سنة ٧١٤ هـ » ، وهذا التاريخ ان صح المتن وصحة سنة الوفاة يقع قبل مولد المقريزى والأوحدى كذلك بأزيد من خمسين سنة .

والعبارة السابقة نقلناها من أحدث طبقة للمواعظ وأعتقد أن الأمر فى حاجة الى تحقيق دقيق .

وبمراجعة المواعظ (١/١٢) و (٢/٢٥٦) نجد اشارة المقريزى لعلاقته واتصاله بالأوحدى .

ولنراجع كذلك مقدمة القسم الثالث من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزى (ى ـ ك) التى دبجت بقلم أستاذنا مصطفى زيادة .

وبالنسبة لاسم فاطمة بنت عباس أورده ابن حجر العسقلانى فاطمة بنت عياشى فى موسوعته الدرر الكامنة (٣/٢٢٦) .

●

أعود لكتاب الخطط الذى صدره المقريزى بمقدمة جغرافية ، تاريخية مسهبة . وتناول المدن والآثار المصرية القديمة والوسيطة بوصف دقيق مبتدئا بالاسكندرية ، وعنى عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة ، فجاء الجزء الثانى منه ، وهو نصف الكتاب ، ثبتا زاخرا بأحوال القاهرة ، وأخبارها ، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة فى العصور الوسطى، فشرح ما تحتويه القاهرة من الخطط وما يقع بها من الآثار ، فوصف الحارات والدروب والدور والحمامات والقيساريات

والأسواق والأحكار والمناظر والقناطر والبرك والميادين والقلعة وما بها من منشآت ، والجوامع والمساجد ، والمعابد ، والمقابر ، وأرباب المذاهب الدينية المختلفة • وحرص المقريزى على أن يستند فى وصفه الى ما يرتبط به كل أثر من أساس تاريخى ، فاحتوى كل فصل على ما يملائمه ويشاكله من الأخبار . فصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق وتبدد من أخبار مصر • ولم يتردد المقريزى فى تكرار الخبر اذا احتاج اليه ، بطريقة يستحسنها الأريب ولا يستهجنها الفطن الأديب •

وأول طبقة لهذا الكتاب ترجع الى سنة ١٢٧٠ هـ (مجلدان) عن مطبعة بولاق القاهرية ــ ويجدر بالذكر أن فييت قام بنشر الكتاب نشرا علميا ، فأعاد طبع أجزاء منه فى القاهرة عن مطبعة المعهد الفرنسى للآثار (١٩١١ ــ ١٩٢٣ م) كما أعيد نشره بالقاهرة فى أربعة أجزاء ١٣٢٤ ، ١٤٢٥ هـ •

وأذكر أننى قرأت لأستاذنا/ مصطفى زيادة أن المسيو جاستون فييت قد وهب ثلثى عمره فى اخراج خطط المقريزى •

●

وأتبع المقريزى الخطط بتأليف كتاب فى تاريخ الفسطاط ، أسماه (عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط) وهو فى الواقع تاريخ لمصر الاسلامية فى عهد الولاة •

وأتبع المقريزى ذلك بكتاب فى دولة الفاطميين بمصر ، أسماه اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا وقام أستاذنا الدكتور جمال الدين الشيال بنشر هذا الكتاب فى طبعة مزيدة عن طبعته الأوربية القديمة (١٩٤٩ م) .

حتى اذا فرغ من أخبار الخلفا فكر فى تأليف كتاب يكون تأريخا للأيوبيين والمماليك ، ليتمم به سلسلة مؤلفاته فى تاريخنا المصرى الوسيط ، من الفتح العربى الى زمنه ، فكان كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، وهو الكتاب الذى غدا أساسا رئيسيا لكل التواريخ المصرية فى عصر الدولتين : الأيوبية والمملوكية الأولى الثانية .

وهذا الكتاب (السلوك) تاريخ لدولتى الأيوبيين والمماليك ، وكما أوضحنا أتم به المقريزى سلسلة مؤلفاته عن التاريخ المصرى الوسيط وقد خرج الجزء الأول من السلوك (١٩٣٤ ــ ١٩٣٩ م) والجزء الثانى (١٩٤١ ــ ١٩٥٨ م) وهما الجزءان الذى قام د. زيادة بتحقيقهما من أربعة أجزاء .

وقد أفتتح المقريزى السلوك بمقدمة طويلة فى ذكر العصور السابقة لموضوع مؤلفه . حتى زوال الدولة الفاطمية وتأسيس دولة بنى أيوب بمصر . ومن هنا كان البدء الحقيقى لكتاب السلوك . فاستهله بشرح أصل صلاح الدين الأيوبى ومولده

وقدومه الى مصر واستقرار الأمر له بها • ثم بدأ فجأة من سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢ م يكتب على نظام الحوليات ، يورد حوادث كل سنة على ترتيب تاريخى تقريبا ، ثم يختمها بالوفيات ، ويضيف اليها أحيانا ما قد يفوته من أخبار أخرى • وانتهى فى هذين الجزءين الى سنة ٧٥٥ هـ/١٣٦٠ م •

وعلى الرغم من استناد المقريزى الى ما كتبه المؤرخون السابقون عليه ، فان ما أورده من حقائق واشارات لم تحوها مطولات المعاصرين ، اذ أنه نقل وأفاد كثيرا منهم ، وزاد عليهم أحيانا من مراجع أخرى اندثرت ، أو وثائق ديوانية لم يبق منها الا ما حفظه المقريزى فى كتابه • والواضح أن المؤرخين الذين جاءوا بعد المقريزى ، نقلوا عنه أو اقتبسوا من كتاباته ، دون الاشارة ، فى كثير من الأحيان الى المصدر أو المرجع • وكان ذلك أمرا مألوفا عند المؤرخين فى العصور الوسيطة •

•

ويلاحظ الباحث أن المقريزى كتب المؤلفات السابق الاشارة اليها لتكون ذيلا على كتاب المواعظ والاعتبار ، وأنه قصد فى كل منها الى أن يشرح ما أجمله من أخبار المعمورة الاسلامية وبالذات الدولة الاسلامية المصرية التى تناولها قبلا فى باكورة مؤلفاته •

ومن أجل ذلك شرع المقريزى (أبو العباس أحمد بن على بن عبد القادر الحسينى) شرع فى التأليف فى كتب التراجم والسير ، وأوغل فى مشروعين كبيرين من هذا النوع من الكتابة ، غير أنه للأسف الشديد ـ لم يتمهما لضخامة المقياس الذى بنى عليه كلا منهما .

أول هذين المشروعين ، كتاب (المقفى الكبير) وقصد به أن يكون معجما شاملا لتراجم حكام مصر ورجالها من المسلمين والنصارى منذ أقدم العصور الى ما قبل عصره ، وقدر له أن يكون فى ثمانين مجلدا ، ولم يستطع أن ينجز منها سوى ستة عشر مجلدا فقط .

أما ثانيهما : وهو كتاب (درر العقود الفريدة ، تراجم الأعيان المفيدة) فكان الغرض منه أن يكون معجما لتراجم معاصريه ، غير أن المقريزى تركه كذلك دون أن يفرغ من مراجعته .

●

وصرف المقريزى الكثير من نشاطه الجم فى التاريخ الاسلامى العام ، فألف فى السيرة النبوية المطهرة ، وفى قبائل العرب التى نزلت مصر منذ الفتح الاسلامى .

وكتب فى جغرافيـة (حضرموت) الواقعة جنوب شبه جزيرة العـرب ، وكتب فى الدويلات الاسـلامية التى قامت بالحبشـية .

وكتب فى التاريخ الاقتصادى والتاريخ الاجتماعى واسهم بنصيب وافر فى هذا الميدان حيث كتب فى الأوزان والأكيال والنقود والمقـاييس والموازين ، وكتب فى تاريخ المجاعـات والطواعين . وربما كان أهم مؤلفاته هـذه كتـاب (النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم) وكتاب (اغاثة الأمة بكشف الغمة) .

فى الكتاب الأول ارجع المقريزى أمر الفرقـة والتنافس على الخلافة بين الأمويين والهاشميين الى عصبيات الجاهليـة الأولى ، وأهمـل المقريزى جانب الحوادث المريرة والحروب المستمرة ، والشخصيات المتنافرة ، التى لم تعد كلها أن تكون أسبابا طارئة فى احتدام الخـلاف ، وهو يترسم بذلك طريق ابن خـلدون وفلسفته فى المقدمـة (ابن خـلدون : المقدمـة ص ١٠٧) .

أما الكتاب الثانى (كشف الغمة) فتناول المقريزى فيه تاريخ المجاعـات التى نزلت بمصر منذ أقـدم العصـور الى سنة ١٤٠٥ م ، وهى السنة التى تم فيها تأليف هذا الكتاب .

وأدى البحث بالمقريزى الى أن أسباب ما ينزل بالناس من مجاعات وطواعين أغلبه يرجع الى :

« سوء تدبير الزعماء والحكام » .

« غفلتهم عن النظر فى مصالح العباد » .

وفى رأينا أن هذا تخريج اقتصادى سبق به المقريزى عصره الا أننا لا ننكر تأثر المقريزى بما كتبه ابن خلدون فى المقدمة (ص ٢٣٣) فى فصل الجباية وسبب قلتها وكثرتها وما يليه من الفصول الدائرة حول هذا المعنى .

ونؤكد هنا ان تأثير ابن خلدون على المقريزى فى تأليف (اغاثة الأمة وكشف الغمة) بالذات تعدى الى طريقة العرض والأسلوب وفواتح الأبواب وخواتيمها ، فضلا عن الفكرة العامة .

وفى الحقيقة ان المقريزى تأثر بابن خلدون ومقدمته فى كتابيه (النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم) و (اغاثة الأمة وكشف الغمة) ، وغيرهما من مؤلفاته تأثرا فاق حد الاعجاب ، وآية ذلك وصفه للمقدمة بأنها :

« لم يعمل مثالها ،

ـ انه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ،

ـ اذ هى زبدة المعارف والعلوم ،

ـ تنيجة العقول السليمة والفهوم ،

ـ توقف على كنه الأشـيـاء ،

ـ تعرف حقيقة الحوادث والأنباء ،

ـ تعبر عن حـال الوجود ،

ـ تنبىء عن أصل كل موجود ••••• » (الضـوء اللامع ٤/١٤٤) •

وهذا الوصف يدل دلالة واضحة على دراسـة المقريزى لمقدمة ابن خلدون دراسـة وافية ، كما يدل على فهمه لمحتوياتها المتنوعة ، وتقديره لقيمتها العلمية بالقياس الى غيرها مما عرفـه خلال قراءاته الدائبـة التى يبدو أنها لم تنقطع الا بوفاتـه سنة ١٤٤٢ م •

وفى الجزء الثـانى من كتاب السخاوى الضـوء اللامع (ص ٢٤) ، وفى الجـزء الأول من (المواعظ والاعتبـار) للمقريزى (ص ٥٠) ما يشير الى عظم الصـلة والعلاقـة بين التلميذ المقريزى والأستاذ عبد الرحمن بن خلدون حيث أشار

المقريزى الى ابن خلدون اشـارة التلميذ لأستاذه . ولم يتحرج فى أن يستشهد بعبارة لاذعة لابن خلدون الأندلسى فى وصف المصريين ، ونصها حسبما ورد بنفس المرجع والجزء والصفحة :
« قال لى شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من يوم الحساب » .

●

والواقع أن المقريزى كان واسع القراءة والمعرفة والاطلاع كثير الدأب والمثابرة ، كما شهد بذلك معاصروه ، وكما يشهد به ما خلفه من مؤلفات لم ير النور بعضها حتى الآن .

ان نظرة واحدة على ثبت مؤلفاته الكفيلة بايقافنا على مدى المامه بالتاريخ والخطط والترجمة والسكة والأوزان والمقاييس ، وهـذا فضـلا عن معرفته بعلم الحشرات والمعـادن والطب والموسيقى ، وعلم الكلام والعقائد والتوحيد والحديث .

ان أعظم اهتمامه كان موجها لعـلم التاريخ ، لأنه كان مغرى به ، معنيا بتحقيقه والتأليف فيه ، فعرف منه جزءا كبيرا معرفة تامه ، وحفظ منه كثيرا عن ظهر قلب . وقد اقر بذلك كله تلميذه النجيب وأشهر معاصريه : أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الذى قال فى كتابه النجوم الزاهرة : (٧/٢٧٩) : « وفى

الجملة هو أعظم من رأيناه فى علم التاريخ وضربه ، مع معرفتى لمن عاصرته من علماء المؤرخين ، والفرق بينهم ظاهر ، وليس فى التعصب فائدة » (١) .

●

واذا أردنا الحديث عن أخلاق المقريزى الشخصية ، فقد أجمع المعاصرون له على أنه عاش ومات رجلا فاضلا دينا ، مجدا أمينا فى عمله ، حتى ان السخاوى الذى حمل كعادته حملة شعواء على كتاب المقريزى المواعظ والاعتبار يقول : ان المقريزى كان على جانب عظيم من :

« حسن الخلق ، كرم العهد ، كثرة التواضع ، علو الهمة لمن يقصد ، والمحبة فى المذاكرة ، والمداومة على التهجد والأوراد ، وحسن الصلاة ، ومزيد الطمأنينة ، والملازمة لبيته » .

ويقول : (حمدت سيرته فى مباشراته) أى فى الوظائف التي تولاها قبل الانصراف للبحث والتأليف . (التبر المسبوك للسخاوى ص ٢٢ — ٢٤) .

---

(١) من المؤرخين الذين عاصروا المقريزى : العسقلانى ، والعينى ، وابن عربشاه ، وخليل بن شاهين ، وبهاء الدين الخالدى .

مؤرخ يكتب عن نجومنا الزاهرة :

ابو المحاسن بن تغرى بردى (١)

المؤرخ الذى معنا احتل مركز الصدارة بين المؤرخين بمصر بعد وفاة المقريزى والعينى ، أواسط القرن الخامس عشر الميلادى . اسمه أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهرى الجوينى ، كان مولده بالقاهرة فى يناير سنة ١٤١١ م ، بدار الأمير منجك اليوسقى ، قرب مدرسة السلطان حسن ، بحى القلعة الحالى . وكانت أمه جارية تركية من جوارى السلطان برقوق ، وأصل أبيه تغرى بردى مملوك رومى (يونانى) جميل الطلعة ، اشتراه هذا السلطان ورباه وجعله ضمن خاصة مماليكه ، ولم يلبث أن أعتقه ورقاه يوم عتقه الى فرقة الخاصكية ، وهى احدى فرق المماليك السلطانية ، ثم أصبح تغرى بردى موضع رعاية مولاه ، فتقلد

(١) من الذين عاصروا أبو المحاسن : نور الدين الصيرفى والسخاوى .

كثيرا من الوظائف الرفيعة فى الدولة المملوكية ، واشترك فى أحداث ذلك العهد حتى وفاة برقوق سنة ١٣٩٨ م .

وقام تغرى بردى أيام السلطان فرج بن برقوق بدور خطير فى حياة الدولة المملوكية الثانية ، ونهض بمسئوليات كبيرة ، اذ تولى نيابة دمشق السورية ، وهى تعد من أكبر النيابات فى الدولة المملوكية الثانية ، ونهض بمسئوليات الدفاع عن مدن الشام ضد غزو التتار بقيادة تيمور لانك ، وانهزم السلطان وتغرى بردى وعادوا الى القاهرة . وبعد جلاء التتار عن دمشق عاد ليتولى نيابة دمشق للمرة الثانية . ونتيجة للدس والوقيعة وهى سمة مملوكية متعارف عليها اتهم والد مؤرخنا بالخيانة العظمى ! فشق عصا الطاعة وتمكن من الهرب الى بلاد التركمان ، حيث أقام مدة منفيا . ثم عفا عنه السلطان فرج بن برقوق بعد ذلك ، وطلب اليه العودة للقاهرة ، وأصدر أمره بتوليته أتابكية العساكر بالديار المصرية (وزيرا للدفاع) ، وقدم برقوق للرجل عربون صداقة وعفو حيث تزوج السلطان برقوق من كبرى بنات تغرى بردى ، واسمها فاطمة ، ثم أصدر أوامره بتوليته دمشق للمرة الثالثة . وظل بها حتى وفاته أوائل سنة ١٤١٢ م . وفى نفس السنةقتل فرج بن برقوق فى انقلاب دموى (٨١٥ هـ) اشترك فيه العادل المستعين بالله

الخليفة العباسى والقضـــاة الأربعة ، والأميران نوروز والمؤيد شيخ ، ليعتلى الأخير عرش السلطنة المملوكية الثانية .

وترك تغرى بردى من الأبناء : ستة ذكور ، وأربع بنات ، منهن خوند فاطمة زوج السلطان فرج بن برقوق المقتول .

وكان أبو المحاسن أصغر أولئك الأبناء الأولاد والبنات جميعا اذ توفى والده وهو فى الثانية من عمره ، فتولى تربيته اضى القضاة/ ناصر الدين بن العديم الحنفى ، وهو زوج أخته لثانية واسمها بيرم .

ثم توفى ابن العـــديم وتزوجت بيرم من قاضى القضـــاة جلال الدين البلقينى الشافعى ، فأكمل البلقينى تربية الصبى الى ن كبر وترعرع .

وتوفى البلقينى سنة ١٤٢١ م ، فصار أبو المحاسن تحت كنف جماعة من أكابر مماليك أبيه ، فتعهدوه بما احتاج من الرعاية عيش وتعليم حربى ومدنى .

وحكى أبو المحاســـن عن نفســـه أنه أدخل يوما وهو فى الخامسة من عمره الى حضرة السلطان مؤيد شيخ ، بعد أن علمه بعض من معه أن يطلب الى السلطان أن يعطيه (خبزا) ومعناه فى مصطلح المماليك اقطاع من الأرض .

ويقول أنه جلس عند المؤيد شـيخ ، وكلمه وسـأله عن حاجته الى الخبز ، فغمز لمن كان واقفابين يديه وهو لا يدرى فأتاه برغيف كبير من الخبز السلطانى ، فأخذه السلطان بيده وناوله لأبى المحاسـن ، وقال له خذ هـذا خبز كبير مليح ، فأخذه بيده والقاه على الأرض ، وبالطبع هذا سـلوك مملوكى فظ ، ويضيف أبو المحاسن انه طلب من السلطان أن يعطى هذا الخبز للفقراء !! أما هو فيريد خبزا بفـلاحين ، يأتون بالغنم والأوز والدجاج ! ، فضحك السلطان وأعجب به ـ كما يقول ـ غاية الاعجاب وأمر له بثلاثمائة دينـار ووعده بما طلب وزيادة. ولن أعلق على ذلك فهذه نظرة المماليك للفلاح المصرى .

●

على كل حال لقد نشأ أبو المحاسن فى بسطة من العيش ، ويتعجب الباحث من قوله فى النجوم الزاهرة انه عاش فقيرا من غير مال ولا عقـار بعد وفاة والده ، لاسـتيلاء السـلطان فرج بن برقوق على جميع ما خلفه تغرى بردى من ثروة ومتاع واقطاع ! وعلى افتراض صحة ذلك فقد كفله أوصياؤه كفلوا تنشئته ونفقته وتعليمـه على أحسن وجه ، كما تشهد بذلك قائمة المشـايخ الذين درس عليهم مختلف عـلوم عصره بمصر والشام والحجاز ، ومنهم المقريزى ، والعينى والعسقلانى وابن

الشماع بحلب السورية ، وكثير غيرهم من اصلاء هذا العصر بالشرق الأدنى من علماء المسلمين •

لقد أحب أبو المحاسن التاريخ دون سائر العلوم التى تلقاها وأجيز له فيها • فنقرأ أنه لازم المقريزى والعينى من أجل دراسة التاريخ ، ونهج نهجهما ، واتبع أسلوبهما ونمطهما فى التحصيل والكتابة الغزيرة ، واجتهد فى ذلك المجال الى الغاية ، وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره ، هذا فضلا عن معرفته باللغة التركية ولعل نظرة عابرة فى مقدمة كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (١/٣ ــ ٢٨) تدلنا على ذلك •

غير أن تفضيل أبى المحاسن لدراسة التاريخ بالذات يرجع في الغالب ــ كما يرى أستاذنا/ مصطفى زيادة ــ الى ما استقام للعينى بواسطة البراعة فى التاريخ من المكانة السامية التى شغلها فى بلاط السلطان برسباى الذى تولى الحكم فى الفترة ما بين (٨٢٥ هـ الى ٨٤٢ هـ) ، اذ طمع أبو المحاسن هو أيضا فى ذلك لنفسه محاولا استرداد هيبة أسرته المفقودة عند الحكام القادمين ، فلما مات المقريزى سنة ١٤٤٢ م ، والعينى بعده سنة ١٤٥١ م خلا الجو لأبى المحاسن ، ولم يوجد من ينازعه فى زعامة المؤرخين على عصره •

وأشار مؤرخنا الى ذلك فى غبطة ورضا ، وجسارة مغلفة بالغرور ، اذ كتب بصدد وفاة أستاذه العينى انه لما انتهى مع المشيعين لجنازة العينى من الصلاة على المتوفى قال له بدر الدين الحنبلى : خلا لك البر بيض وأسفر . ولم يرد عليه ، وأرسل اليه بعد ذلك الى منزله ورقة مكتوبة بخطه يستفسر منه عن بعض أعيان التاريخ ، الا أن الحنبلى اعتذر بتشتت ذهنه وكبر سنه ، ثم أبسط المدح والثناء لأبى المحاسن وكتب اليه بأنه فارس الميدان وأستاذ الزمان .

وتاريخ هذه الورقة المشار اليها يعود الى سنة ٨٤٩ هـ أى قبل وفاة العينى بعامين فقط . (النجوم الزاهرة ٧/٣٦٦).

ومهما يكن من انتهاء الزعامة بين المؤرخين فى مصر لأبى المحاسن ، فانه لم يتفق له أن صار نديما دانيا لسلطان من سلاطين المماليك ، يقرأ له التاريخ فى أمسياته ، مثلما كان العينى مع برسباى ، على أنه تقلد الكثير من الوظائف الحكومية فى عهود مختلفة ، وكان له من مولده وتنشئته ، وقراباته ومصاهراته وصداقاته ، ما جعله من رواد البلاط السلطانى .

لذلك كان أبو المحاسن من المختلفين لبرسباى ، حتى صحبه فى حلقات الصيد والقنص والنزهة .

وحسنت صلته بالسلطان جقمق (تشقمق) الذى تولى من سنة ١٤٣٨ م الى سنة ١٤٥٣ م ، حتى انتظمت زياراته لمجلسه مرة كل أسبوع ، ضمن رجال العلم والأدب ، وكان بينه وبين الأمير محمد بن جقمق صحبة قديمة ومحبة زائدة ومصاهرة . بيد أنه لم يكن ذا حظوة لدى السلطان سيف الدين ابن اينال الذى تولى من سنة ١٤٥٣ م الى سنة ١٤٦٠ م ، فقد كانت زياراته لبلاطه لم تعد المرة أو المرتين فى العام كله .

وسرعان ما عاوده الحظ فى السلطان خشقدم الرومى ، بفضل وساطة أحد الأمراء الكبراء .

وعاش مؤرخنا ليرى أوائل سلطنة قايتباى سنة ١٤٦٨ م ، ويكتب عنها مما يدل على أنه لم يلق فى بلاط السلطان عناية أو قبولا .

على أن أبا المحاسن استطاع خلال حياته الطويلة والتى صرف معظمها وهو يحوم حول السلطان وبلاطه استطاع أن يكتب كثيرا فى التاريخ والتراجم ، وأن يبرع فى الفروسية ولعب الرمح ، والرماية ، والبولو ، وحذق الموسيقى والأنغام ، وبرع فى دراسة الايقاع ، ونظم الشعر بالعربية والتركية .

وحج أبو المحاسن مرتين : الأولى سنة ١٤٢٢ م والثانية سنة ١٤٤٥ م . وقام أبو المحاسن فى حجته الثانية بوظيفةباش

المحمل المصرى ، وهى رتبة أقل من أمير المحمل . ونذكر أمرا طريفا فى هذا المجال أن العادة جرت أن يكون لأمير المحمل رجلان فى معيته يسمى أحدهما باش الميمنة وشغلها فى حجته الثانية مؤرخنا ، وثانيهما باش الميسرة (ويكون أقل فى المنزلة) وكان قايتباى الذى سيحكم مصر (من ١٤٦٨ م الى ١٤٩٥ م) هو باش الميسرة !!

* * *

يقول لنا ابن الصيرفى أن مؤلفات أبى المحاسن اثنا عشر كتابا ، وصلنا من هذه المؤلفات سبعة فقط ، أشهرها فى تاريخ مصر الاسلامية من الفتح الاسلامى الى سنة ١٤٦٧ م ، واسمه النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، فى سبعة مجلدات ضخمة .

وذكر أحد المعاصرين أن أبا المحاسن اختصر هذا الكتاب الضخم فى مجلد واحد اسماه : (الأنوار الظاهرة من الكواكب الظاهرة) ، غير أنى لم أستطع العثور على هذا الكتاب .

وعكف أبو المحاسن على تأليف هذا التاريخ الكبير من أجل السلطان المرجو محمد بن جقمق ، الذى عاجلته المنية سنة ١٤٤٣ م قبل أن يتحقق هذا الرجاء ، وكان فى عزم مؤرخنا

أن يختتمه بحكم هذا الأمير وعدله ، وأن يجعل منه ما جعل العينى من كتابه (عقد الجمان فى تاريخ أهل هذا الزمان) .

وكثيرا ما يشير أبو المحاسن فى ثنايا هذا الكتاب الى كتاب آخر سبق له أن كتبه ، واسمه (المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى) ، وهو كتاب ملىء بتراجم الأعيان والنابهين من سلاطين الدولتين المملوكية الأولى والثانية ورجالهما ، وبعض ملوك البلاد القريبة من المسلمين والنصارى من سنة ١٢٥٢ م الى عصره ، ورتبه أبو المحاسن ترتيبا أبجديا وأراد به أن يكون ذيلا وتكملة للكتاب (الوافى بالوفيات) ، لخليل بن أيبك الصفدى المتوفى سنة ١٣٦٢ م . ثم أختصر أبو المحاسن هذا المؤلف فى كتاب آخر اسماه (الدليل الشافى على المنهل الصافى) ، وجعل لهذا المختصر مختصرا اسماه (مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة والخلافة) وهذا الكتاب فى رأينا لا يرتقى الى مستوى كتب الرجل الأخرى باستثناء ما فيه من تاريخ مقتضب للسيرة النبوية العطرة ، لا نجد غير بيانات جافة باسماء الصحابة والخلفاء الراشدين ، والأمويين والعباسيين والفاطميين ، ومن وليهم على مصر الى سنة ١٤٣٨ م .

ولأبى المحاسن بن تغرى بردى مؤلف آخر يكثر من الاشارة اليه كذلك في نجومه الزاهر ، واسمه (حوادث

الدهور فى مدى الأيام والشـهور) والمراجع له يرى أنه ذيل لكتاب (السـلوك لمعرفـة دول الملوك) لأستاذه المقريزى ، وترتيبه على السنين والشهور والأيام كترتيب المسلوك للمقريزى، أى أن أبا المحاسـن بدأ به من حيث انتهى المقـريزى الى سـنة ١٤٥١ م .

وخالف أبو المحاسن المقريزى وغايره قليلا فى طريقته من الاطناب فى الحوادث والاقتصار فى تراجم الوفيات ، فأطـال فى كل منهما قدر ما استطاع الى ما سبق له استيفاؤه فى (النجوم الزاهرة) و (المنهل الصافى) لتكثر الفائدة من الطرفين على حد قوله فى مقدمته لكتاب (حوادث الدهور) .

ومن مؤلفات أبى المحاسن كذلك كتاب اسـمه (نزهة الرائى فى التاريخ) وكتـاب (البحر الزاخر فى علم الأوائـل والأواخر) وجميع الكتب التى تحدثت عنهـا موجودة كاملة أو ناقصة مطبوعة أو مخطوطة ، فى معظم المكتبـات العربيـة والاسـلامية ، وما عداه فغـير مقطوع بوجوده حتى الآن مع احترامنا الشديد لكل من يخالفنا فى هذا الرأى .

ولأبى المحاسن كتب أخرى فى معارف مختلفة ، لا صـلة لها بصميم علم التاريخ الاسلامى وهى :

— كتاب نزهة الألباب فى اختلاف الاسماء والألقاب .

- كتاب حلية الصفات فى الاسماء والضاعات •
- كتاب البشارة فى تكملة الأشارة •
- كتاب الانتصار للسان التتار (رسالة فى معانى اللغة التركية) •
- كتاب فى الرياضيات والموسيقا •
- كتاب السكر الفاضح والعطر الفائح (وهو فى التصوف ورأيت صورة منه عن نسخة خطية موجودة فى مكتبة الاسكوريال ، تحت رقم ٣٦٧) •

●

نقد عنيف شديد يوجهه كل من ابن الصيرفى (نور الدين) والسخاوى المشاكس دائما ، فقد رماه كل منهما بما خال أو شاء من تهم نرى ان فى عبارتها شيئا من الغيرة والحسد • يقول السخاوى :

« وبالجملة فقد كان (أبو المحاسن) حسن العشرة ، تام العقل — الا فى دعواه فهو حمق — •••• لطيف المذاكرة ، حافظا الأشياء من النظم ونحوه ، بارعا حسبما كنت أتوهمه فى أحوال الترك ومناصبهم وغالب أحوالهم ، منفردا بذلك لا عهد له بمن عداهم ، ولذلك تكثر فيه أوهامه ، وتختلط ألفاظه

وأقلامه ، مع سلوك أغراضه ، وتحاشيه مجاهرة من أدبر عنه باعراضه ، وما عسى أن يصل اليه تركى !! » (الضوء اللامع للسخاوى : ١٠/٣٠٥ ـ ٣٠٨) .

ونجد الصيرفى يردد هذا المعنى ويعطى لنا زيادة ان أبا المحاسن كلما فرغ من كتاب يتوجه به الى من يعرف العربية، فيصلحه له ويصير له به مزية .

واذا كان السخاوى المصرى الأصل والجدود ينقد التركى (أبو المحاسن) فالمعروف عن السخاوى أن ذلك طبعه وطريقته ولكن لا أجد مبررا لنقد ابن الصيرفى ، مبررا مقنعا .. ! فالرجل يهودى الأصل كما تدل سيرته فما الداعى الأن نقذف بيوتات الناس بالأحجار فى الوقت المشيدة فيه منازلنا من الزجاج المعرض للكسر بسهولة ! ؟

أمر آخر يقوله الصيرفى وذكرناه أن أبا المحاسن كان يدفع بكتبه لمن يعيد صياغتها عربيا حيث انه لا يجيد العربية ـ والواقع أن سقم الأسلوب العربى الذى كتب به مؤرخو تلك الفترة مؤلفاتهم التاريخية وغيرها أمر واضح للعيان ، اذ الواقع أنها تموج بألفاظ وتعابير وجمل لا تمت للعربية الفصحى بصلة ، وتزخر بعاميات غريبة واصطلاحات غامضة لا تذكرها

القواميس والمعاجم • وأكثر ما يكثر ذلك فى مؤلفات أبى المحاسن وابن اياس ، بل ان أسلوب المقريزى نفسه لم يخل من هنات كثيرة • ويرجع ذلك فى رأينا الى دخول كثير من ألفاظ اللغات المجاورة بما فى ذلك اليونانى واللاتينى وفروعه فى مصطلحات الجيش والبحرية والدواوين ، مما أدى الى كثير من الخلط بين ما هو عربى صحيح وما هو أجنبى غير جائز الاستعمال • وهذا الخلط فى ظاهره وواقعه عيب يؤسف له ؛ وكثيرا ما شكا قراء هذه الكتب التاريخية من عوج أسلوبها وغموضها • غير أن ذلك فى باطنه حسنة لا تنكر ، اذ انه أنموذج لحال اللغة والكتابة فى عصر سلاطين المماليك بمصر والشام ؛ وهو لذلك مادة ذات أهمية للمعنيين بدراسة تاريخ الأدب العربى فى مصر ، والمشتغلين بدراسة لهجات القاهرة فى مختلف العصور •

●

نعود لأبى المحاسن وما قيل فيه ، فيتجلى لنا ــ رغم نقد السخاوى وابن الصيرفى ــ بقراءة مؤلفات أبى المحاسن أنه كان مؤلفا واسع المعرفة ، شديد التدقيق والتحرى فى كتابته ، وأنه كان كدودا ، أمينا ، مجتهدا بقدر ما انطوت عليه هذه الصفة من معنى عند جمهرة المؤرخين فى العصور الوسطى

بالشرق والغرب ، حين لم يكن النقل وانتحال الصفحات المتتابعة من كتب السابقين والمعاصرين جريمة شنيعة يضاف الى ذلك أنه اذا أخذنا نقد أبى المحاسن لأخلاق الرجال الذين تناولهم فى كتبه مقياسا لخلقه ، وذكرنا قول ابن اياس فيه ، وهو الذى خلفه فى زعامة المؤرخين بمصر ، وضح لنا حقا أنه كان « رئيسا حشما فاضلا ... له اشتغال بالعلم ... ، مشغوفا بكتابة التاريخ » (بدائع الزهور لابن اياس ١/١١٨) .

دليل آخر أن الرجل لم ينقطع عن الكتابة والتأليف حتى قبيل وفاته فى يونيو سنة ١٤٧٠ م .

وعاصر أبا المحاسن اثنان ممن اشتغلوا مثله بالتاريخ المصرى ، وألفوا فيه مؤلفات قيمة ، وهم بحسب الترتيب الزمنى ابن الصيرفى والسخاوى ، وكل منهما صاحب ترجمة مطولة لأبى المحاسن تكشف عن كثير مما قام بين مؤرخى تلك الفترة من تنافس وغيرة وحسد أحيانا وسوء دخيلة .

السخاوى

مؤرخ هوايته ان يشاكس !!

أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد ... السخاوى، نسبته الى بلده سخا المصرية الواقعة بمحافظة كفر الشيخ الحالية بمصر ، كان مولده سنة ١٤٢٧ م ، بحارة بهاء الدين لصق باب الفتوح القديم بالقاهرة . وعاش جده شيخا فقيرا صالحا يتكسب بتجارة يسيرة فى سوق الغزل بميدان القمح بالقاهرة ، ويكثر من الاختلاف الى مواعيد رجال الدين ومجالسهم للافادة والاعتبار . وكان أبوه عبد الرحمن كذلك فى معيشته وتكسبه وتردده على مجالس رجال الدين ، وطابت صلته ببعضهم لعلمهم بتقواه وتصوفه .

وترجم السخاوى فى الضوء اللامع لكل من جده وأبيه ترجمة تفيض حنانا وبرا ، وهى العمدة الوحيدة لمعظم الذين كتبوا عن والد وجد السخاوى .

وكان معظم شيوخ السخاوى ومعلميه من رجـال الدين أصحـاب أبيه ، ومنهم ابن حجر العسـقلانى الذى اختص به وأخيه ، لسبق الصلة بين والده وابن حجر ، وقرب منزله من منزله . ولزم السخاوى ابن حجر أشـد الملازمة ، وحمل عنه ما لم يشاركه فيه غيره ، وأخذ عنه أكثر تصانيفـه فى الحديث والتاريخ والتراجم ، وهـذا فضـلا عن مقروءاته ومسموعاته على غير ابن حجر من المشايخ . وحلا للسخاوى أن يعد هذه المقروءات والمسـموعات وأصحابهـا عدا دقيقـا فى ترجمتـه لنفسه فى الضـوء اللامع ، وهى ترجمة ضافية استغرقت ثلاثين صفحـة كاملة ، وليس فى كتابه كله ترجمـة واحدة تشبهها أو تقرب منها فى السعة والافاضة والتمدح بأقوال المعجبين به من المعاصرين (الضوء اللامع ٢/٨ ـــ ٣٢) .

وعرف السخاوى عند البعض باسـم ابن البارد ، وهى تسمية اشتهر بها جده وأبوه كذلك لسبب غير واضح تماما ، لعله فيما يخص السخاوى على الأقل أنه كان عظيما عند نفسه الى درجة لم يشاركه فيها الكثيرون من المعاصرين ، وأنه تناول معظم أعلام عصره بالتجريح والنقد ، ورماهم فى غير واحد من مؤلفاتـه بالقصـور وضعف الرواية والبيـان . ومع هـذا فالسخاوى نشأ وعاش متمتعا برعاية أستاذه ابن حجر وعنايته ، وبادل الشيخ تلميذه حبا بحب واخلاصا باخلاص ، فصار

يرسل اليه خادمه ليعلمه بوقت ظهوره فى بيته ليقرأ عليه ، بل قال فيه ، ولما يبلغ الثانية والعشرين من عمره : « انه مع صغر سنه ، وقرب أخذه ، فاق من تقدم عليه بجده واجتهاده وتحريه وانتقاده » (الضوء اللامع ٨/٣٠) وأكثر من هذا أن ابن حجر قام ليخدم بنفسه فى حفل عرس السخاوى سنة ١٤٤٤ م ، وجهد فى توظيفه بوظائف تدريس علم الحديث الذى أهله لها أحسن تأهيل .

ثم توفى العسقلانى سنة ١٤٤٩ م ، فقرر السخاوى ـ الذى عاش فى حزن شديد على أستاذه ـ قرر الرحيل من القاهرة الى بلاد الشام ، ليسلو عن فقد أستاذه بالدرس والتحصيل هنالك . غير أن أبويه اثنياه عن عزمه هذا ، فظل بمصر مواصلا دراسة الحديث ، وأخذ يتنقل فى سبيل ذلك بين المدن الكبرى فى مصر : كدمياط ، ومنوف ، والمحلة الكبرى ، وسمنود ، والاسكندرية وغيرها .

واجتهد السخاوى أثناء ذلك أن يجد لنفسه وظيفة لتدريس الحديث الشريف بالقاهرة ، مستعينا بأصدقاء أستاذه الراحل . ثم إنتهى به الأمر الى الحج مع أمه وأبيه سنة ١٤٥٢م . فأقام بمكة المكرمة بضع سنين وجاور بها وزار مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . وتنقل السخاوى منذ سنة ١٤٥٣ م بين

مصر والشام والحجاز ، فحج خمس مرات آخرها سنة ١٤٩٢ م، وحرص على الاقامة بمكة مدة اثر كل حجة ، كما استقر بمصر أحيانا ليدرس الحديث بمدارس القاهرة ، ودأب أثناء ذلك كله على التأليف فى الحديث والتاريخ •

واتصل السخاوى بالأمير يشبك بن مهدى محافظ الوجه القبلى على عهد السلطان خشقدم الذى تولى حكم مصر من (١٤٦١ م) الى (١٤٦٧ م) ، ويشبك هذا سيتولى منصب صاحب الدوادارية الكبرى فى زمن السلطان قايتباى الذى تولى السلطنة من (١٤٦٨ م) الى (١٤٩٥ م) •

وكان يشبك أقوى الشخصيات على عهد قايتباى ، وبيده فوق وظيفته الكبرى الخطيرة خمس وظائف أخرى ، مع ما يتعلق بها من أملاك وأوقاف ومدارس ومحسوبية ، ومن ذلك تعيينه السخاوى على احدى وظائف تدريس الحديث التى تعب قبلا فى الحصول على مثلها أيما تعب ، وسعيه له قبل ذلك عند خشقدم ليكون قارئا للحديث بعد امام السلطان : ومع هذا شاء السخاوى أن يذكر صلته بذلك الأمير الكبير فى عبارة كلها كبرياء وترفع ، وأن يقرر أن يشبك سأله فى المبيت عند خشقدم ليلتين فى الأسبوع ، ليقرأ له نخبا من التاريخ ، كما فعل العينى مع برسباى ، فرفض السخاوى ذلك ـ كما يزعم ـ

بل أنه تنصل وأبى ، وأن يشبك ألتمس منه أن يحضر اليه ليقرأ تصانيفه فامتنع — وقد قال السخاوى ذلك فى ترجمته لهذا الأمير المحسن البذول مؤكدا تكرار اجتماعه به ، زاعما حرص يشبك على ذلك ، ورغبته فى تحصيل أشياء من تصانيفه ، وأسمع بعض أولاده وأصدقاءه كتاب المسلسل فى الحديث للسخاوى ، ويدعى أنه لو وافقه على مزيد من الاجتماع به لتزايد اقباله ، ولكن الخيرة فيما قدر (الضوء اللامع ١٠/٢٧٢ — ٢٧٤) .

●

عنى السخاوى المصرى بذكر مؤلفاته الكبرى والصغرى فى أربع صفحات من ترجمته لنفسه فى الجزء الثامن من الضوء اللامع (ص ١٥ — ١٩) تحوى قائمة طويلة باسماء كتبه ورسائله ومقالاته ، وهى جديرة ببحث العلماء والباحثين واستقصاء الراغبين فى احياء الكتب العربية المبعثرة بمختلف مكتبات العالم .

ومن هذه المؤلفات كتابه الشهير (التبر المسبوك فى ذيل السلوك) والنسخة التى فى مكتبتى تقع فى أجزاء أربعة وتم طبعها بالقاهرة من نسخة فريدة ناقصة تبتدىء من سنة ٨٤٥ هـ وتنتهى سنة ٨٥٧ هـ ، مع أنه كان يشمل حتى أواخر القرن

التاسع الهجرى ، على حد قول السخاوى نفسه ، وهذا فضلا عن اشارات المعاصرين بصدده •

والتبر المسبوك كما يتضح من آخر العنوان تكملة لتاريخ المقريزى المشهور (السلوك لمعرفة دول الملوك) ، وكان تأليف (التبر المسبوك) اجابة لرغبة الأمير يشبك وهو على وظيفة الدوادارية الكبرى ، أى أن السخاوى كتبه زمن السلطان قايتباى • ويظهر ان السخاوى شغف بتكميل كتب السابقين أو تلخيصها ، اذ أنه ألف كتابا وجيز الكلام فى ذيل (تاريخ دول الاسلام) تكمله لكتاب الذهبى المؤرخ (١) •

وكتب الذيل المتناهى تكملة لتاليف ابن حجر العسقلانى فى قضاة مصر ، كما ألف الذيل على طبقات القراء تكملة لكتاب الجزرى (٢) •

أما ملخصاته فمنها كتاب المنتقى من تاريخ مكة للفاسى ، وكتاب تلخيص تاريخ اليمن لمؤلف لم يذكر السخاوى اسمه ولعله الفاسى كذلك •

---

(١) توفى الذهبى (٨٤٨ هـ) صاحب التاريخ المعروف ب (تاريخ الإسلام) والذهبى من كتاب عصر الموسوعات حيث الف فى المجاميع الضخمة والموسوعات الشاملة .

(٢) (دفع الاصر من قضاة مصر) كتاب ارخ فيه العسقلانى للقضاة وطبقاتهم وحياتهم •

وللسخاوى نحو مائتى كتاب فى الحديث والفقه والطبقات والتاريخ وسنعرف بكتابين له تعريفا سريعا .

(الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) وهو مقالة طويلة فى قواعد الجرح والتعديل عند المؤرخين ، وبه صفحات ضافية فى تاريخ التأريخ وفضله بين العلوم اللازمة للمشتغلين بالحكم ومصائر الدول .

وله فى التراجم كتاب (الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع) وهو معجم زاخر يقع فى اثنى عشر جزءا ، خص جزءا منه للنساء . ونفس الشىء كان أستاذه العسقلانى قد فعله فى (الدرر الكامنة) . وتناول السخاوى فيه الترجمة لأهل القرن التاسع (الخامس عشر الميلادى) ، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء ، والرواة والأدباء والشعراء والخلفاء والملوك والأمراء والمباشرين والوزراء ، فى جميع أرجاء العالم الاسلامى ، شرقا وغربا ، بل أنه أورد بعض المشهورين من أهل الذمة . ورتبه على حروف المعجم ، على أن مؤلفه لقى النقد من المؤرخين المعاصرين أمثال ابن اياس والسيوطى ، نظرا لما ابتلى به كتابه من تصغير الكبير ، وتحقير الصغير ، ممن ترجم لهم .

لقد أبسل الرجل نفسه للوم المعاصرين وتجريح اللاحقين ، ومن ذلك قول ابن اياس فيه بأنه « ألف تاريخا فيه كثير من المساوىء فى حق الناس » .

وقول السيوطى قرينه مستفهما مستنكرا : « ما ترون فى رحل ألف تاريخا جمع فيه أكابر وأعيانا ، ونصب لأكل لحومهم خوانا ، ملأه بذكر المسالب (المساوىء) وثلب الأعراض ، وفوق فيه سهاما على قدر أغراضه ، والأعراض هى الأغراض جعل لحم المسلمين جملة طعامه وادامه ، واستغرق فى أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق بين جليل وحقير .. » يقول السيوطى هذا الكلام فى كتابه الذى ألفه خصيصا للرد على السخاوى واسماه (الكاوى فى الرد على السخاوى) أو (الكاوى على السخاوى) وهذا الكتاب مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ولم يخرج الى النور حتى كتابة هذه الدراسة ، ونأمل أن تتاح الظروف لنا كى نخرجه الى جمهور القراء لما يثيره هذا الكتاب من قضايا عديدة تحتاج الى درس وتحليل .

لقد اشتد الخصام بين السيوطى والسخاوى مدة طويلة ، وأضطرم الجدل والنقاش بينهما ردحا من الزمن ، فرشق كل منهما صاحبه بأقذع أنواع التهم ، حتى حال الموت بينهما ، اذ توفى السخاوى بالمدينة المنورة سنة ١٤٩٧ م ، وبقى السيوطى بعده تسع سنين .

ابن اياس بين « البدائع » و « الوقائع »

ابن اياس رجل من الذين تداولوا الزعامة فى حلبة التأليف فى التاريخ الاسلامى .

اسمه محمد بن أحمد بن اياس المصرى الحنفى وأورد بروكلمان اسمه كاملا على هذا النحو : « أبو البركات محمد بن أحمد بن اياس زين الدين (أو شهاب الدين) الناصرى الجركسى الحنبلى » وكرر بروكلمان نسبه الى الحنابلة فى ملحقه لكتابه ، وهو خطأ بين ، فلم نسمع ان حنبليا واحدا قام ابن اياس بالتلمذة على يده .

كان مولد ابن اياس بالقاهرة المملوكية سنة ١٤٤٨ م ، احدى وعشرون سنة قبل وفاة أبى المحاسن . وابن اياس شبيه بأبى المحاسن من حيث ان كلا منهما سليل أسرة مملوكية ، على أن ابن اياس كان أقدم عرقا فى المجتمع المملوكى ، فنحن لا ندرى من أصل أبى المحاسن بن تغرى بردى سوى أخبار أبيه وأمه

منذ مجيئهما الى مصر فى عهد أستاذهما السلطان برقوق ؛ الا أننا نعرف الجد الأكبر لابن اياس ، واسمه ازدمر العمرى الناصرى (أبو ذقن) الشهير بالخازندار .

وكان ازدمر من أمراء الدولة المملوكية الأولى زمن السلطانين : حسن بن الناصر محمد الذى تولى من ١٣٤٧ م الى ١٣٥١ م ثم عاد لتولية الحكم ثانية من ١٣٥٤ م الى ١٣٦١ م — وشعبان بن حسن الذى تولى ١٣٦٣ م الى ١٣٧٦ م وتولى مدة حكم كل منهما وظيفة أمير سلاح ، ونال فى عهد شعبان بن حسن حظوة وثقة خاصة ، وتقلب فى نيابات : صفد ، وطرابلس ، وحلب السورية ، واختير أواخر أيامه لنيابة دمشق ، ثم وافته المنية وهو فى الطريق اليها سنة ١٤٦٦ م على عهد خشقدم .

ولدينا معلومات قليلة بصدد جد ابن اياس لأبيه ، واسم اياس الفخرى ، وهو من مماليك السلطان الظاهر برقوق ، وقد وصل الى درجة حكومية كبيرة ، حيث تولى وظيفة الدوادار الثانى زمن السلطان فرج بن برقوق .

أما والد ابن اياس ، واسمه شهاب الدين أحمد ، فكان على قول ابنه من مشاهير أولاد الناس وهى طبقة الصفوة المملوكية ، أى أنه من أفراد تلك الفرقة المملوكية التى ضمت

أبناء الأمراء من المماليك المندرجين بالوفاة ، حيث جرت العادة أن يعطى للواحد منهم اقطاع متناسب مع رتبة أمير خمسة فى النظام الحربى المملوكى رعاية لسلفه ، بشرط أن يندمج فى الرديف السلطانى ، ويكون صالحا للخدمة فى احدى الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم ولعل مراجعة صبح الأعشى للقلقشندى (٤/١٥) ودائرة المعارف الاسلامية (مادة ابن اياس) تفيدنا فى هذه النقطة .

وذكر ابن اياس عن أبيه أحمد هذا أنه كان من المحببين الى كثير من أمراء الدولة وأربابها ، وأنه عاش نحوا من (٨٤) سنة ، وأنه أنجب فى حياته الطويلة (٢٥) ولدا ما بين ذكور واناث ، بقى منهم بعد وفاته سنة ١٥٠٢ م بنت واحدة وصبيان ، أحدهما محمد بن اياس نفسه ، وثانيهما الجمالى يوسف . أما البنت فلعلها هى التى مات عنها زوجها الأمير قرقماش المصارع ، وهو من أمراء العشرات زمن السلطان قايتباى ، ووظيفته (أمير آخور رابع) فى البلاط السلطانى ، وكانت وفاته سنة ١٤٧٢ م فى معركة (البيرة) على نهر الفرات العراقى ، حيث ظفر الجيش المملوكى فى عهد قايتباى وبقيادة الأمير يشبك بن مهدى بجيوش حسن الطويل (أوزون حسن) ملك التركمان المعروفين باسم الشاة البيضاء (آك كوينلو) . أما الصبى الجمالى يوسف فكان من الزرد كاشية (هندسة

المذفعية) ، على عهد السلطان قنصوه الغورى الذى جلس على عرش مصر من (١٥٠٠ م) الى (١٥١٦ م) وقتل تحت سنابك الخيل العثمانية فى موقعة مرج دابق بالقرب من حلب. ويظهر من كلام ابن اياس وغيره أن يوسف هذا كان خبيرا بفنه ، وبيده وظيفة رئيسية فى عمله .

يتضح من هذه الاشارات التى ذكرناها أن ابن اياس مؤرخنا الموسوعى نشأ فى وسط مملوكى بحت ، وأنه مت الى بعض رجال الدولة المملوكية فى عهد قايتباى ومحمد بن قايتباى والظاهر قانصوه الأشرفى ، وأشرف جانبلاط وقنصوه الغورى بصلة المصاهرة والقرابة والصداقة . غير انه مما يدعو للدهشة والاستغراب أنه لم يترجم له بكثير أو قليل ، وان مبلغ ما يعتمد عليه الباحث لكتابة ترجمة لهذا المؤرخ الكبير لا يعد تتفا مبعثرة فى كتبه التى ألفها هو ، وعبثا يحاول الباحث عندما يراجع الكتب المعاصرة والمتأخرة لعله يظفر بشىء ، يقرأ السيوطى وعبد الباسط بن خليل الحنفى وهما من أساتذة ابن اياس بتقريره هو ، وكمؤلفات السخاوى والغزى والأعظمى والبورينى واليمنى والمحبى والمرادى ، وهم أصحاب كتب جليلة فى التراجم والسير لأعلام القرن التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر للهجرة .

على أن فقدان هذه الترجمة لمؤرخنا ابن اياس لا تعجز الباحث عن محاولة الكتابة عنه ، بل هذا الفقدان فى حد ذاته خسارة مشبوبة بزلج لا بأس به وان جاء سلبيا من وجهة النظر العلمية ، بمعنى أننا نعتمد فيما نكتب على إشارات المؤلف عن نفسه ورجال عصره فيما ألف من كتب ، فيستشف منها موقفه من الحوادث ، ويسبر بها دخائل شخصيته وأخلاقه .

ومن تلك الاشارات الخاصة يهودية ابن اياس أنه نشأ كأبيه شهاب الدين أحمد ، وكأبى المحاسن كذلك ، فى فرقة أولاد الناس .

وحج ابن اياس سنة ١٤٧٧ م دون أن يقوم على وظيفة معينة فى الركب المصرى ، كتلك التى اسندت الى أبى المحاسن ابن تغرى بردى (باش ميمنة المحمل) فى حجته .

على أنه شهد فى هذه الحجة ما لقيه الحجاج فى ذلك العام من عنت وغلاء وفناء بمكة المكرمة ، بسبب ما وقع وقتذاك بين السلطان المملوكى وبعض المكيين ، وجاء وصفه لما حدث برهانا على ما هنالك من دخن دائم وكره متبادل ، بين ممثلى السلطان المملوكى وذوات الحجاز وأمرائه ، طوال عهد المماليك .

وواضح أن مؤرخنا الارستقراطى قضى معظم حياته متمتعا باقطـاع وافر ، يرجح البعض انه من لدن السـلطان الغورى والمعروف ان الغورى تولى السـلطة ١٥٠٠ م وقتـل فى مرج دابق سنة ١٥١٦ م أى أنه جلس فى الحكم حوالى (١٦) عاما فقط اذن على حد القول السـابق تكون الفترة التى عاشـها فى بحبوحة ورغد حوالى (٢٨ عاما) لأن ابن اياس مات حوالى سنة ١٥٢٨ م ولكننا نرى أن الاقطاع الوافر الذي وفر له جوا مستقرا حصـل عليه من قبل الغورى بكثير ولعله ورثه عن أبيه أو عن أجداده وبذلك انصرف ابن اياس للكتابة والتأليف فى التاريخ بدون أى مشاكل ، كما يقال : انه نظم الشـعر والزجل والمواويل والموشحات بأنواعها .

عاش متتبعا عن كثب حوادث المجتمع الذى تقلب فيه ، وكان شديد الاحساس بما يجرى فى دولة المماليك من عوامل التداعى .

على أنّ منظومات ابن اياس توجب علينا الالتفات : فمنها ما هو مدح أو رثاء لسلطان أو سلطانة أو أمير ، ومنها ما هو تهنئة بالشفاء من سقم ، أو النجـاة من محنة لعين من أعيـان الدولة ، ومنها ما هو نقد مباشر أو تعقيب على بعض أعمـال الحـكومة .

فهل نستخلص من ذلك كما ذهب المستشرق (مرجليوث) أن ابن اياس صاحب « كتـــاب تاريخ مصر المشـــهور ببدائع الزهور فى وقـــائع الدهور » تولى وظيفـــة مؤرخ الدولة فى الحكومة المملوكية ؟ !

ابن ايـــاس لم يذكر لنـــا شـــيئا من ذلك عن تعيينـــه كمؤرخ رسمى ـــ فى مؤلفاته ـــ ونحن فى مذاكرتنا للتـــاريخ المملوكى لا نعرف وظيفة بهذا الاسم ولا أعتقد أن النظام المملوكى عرف وظيفة بهذا الاسم .

هل كان الرجل من رجال الأدب المشغوفين بالعيش على هامش الحاشـــية السلطانيـــة ، المتصلة ببعض رجالها كأبيـــه من قبل ؟ !

هل لجـــأ ابن اياس للشعر بحثـــا عن الشهرة لعله يغنم بفرصة تقربه من السلطان أكثر وأكثر ؟

هل أراد الرجل لنفســـه مع السلطان محمد بن قايتبـــاى مركزا مشابها لمركز العينى مع الســـلطان الأشرف برسباى ، أو لمركز أبى المحاســـن بن تغرى بردى مع الســـلطان المرجو محمد بن حقمق ؟ !

ولكن ابن قايتباى تولى (٣ سنوات) فقط لم تكن كفيلة بتحقيق أحلامه وطموحاته ؟

فليكن للرجل وظيفة أى وظيفة فى المحيط المملوكى أو فليكن بعيدا عن أى وظيفة فالذى نعتقده أن أشعاره ومناسباتها الخاصة والعامة ، تؤكد أنه عاش فردا متتبعا عن كثب لحوادث المجتمع الذى تقلب فيه ، وليس ذلك بصفته مؤرخا معنيا بتدوين الحوادث والأخبار ، بل لأنه كان رجلا حيا ، حساسا بما يجرى فى دولة بدت عليها مخايل الزوال والاحتضار ، وربما كان أوضح دليل على هذه الحساسية فيه قصيدته بصدد ضرائب المشاهرة التى ألغاها الغورى أواخر أيامه ، ومرثيته التى قالها فى سقوط دولة المماليك واعدام طومان باى شنقا على باب زويلة ودخول العثمانيين القاهرة .

وحدث لابن اياس فى منتصف سنة ١٥٠٨ م ما عكر عليه صفو حياته المطمئنة ، اذ تأزمت أحوال السلطان الغورى لضيق سبل المال اللازم للصرف على المماليك الخاصة به ، فأضطر الى اجراء ضغط عاجل للمصروفات فعمد الى اخراج أولاد الناس من أجناد الحلقة عن اقطاعاتهم ، وقطع رزق الأوقاف عن أهلها ، وأطلق لمماليكه العنان ليهاجموا أصحاب تلك الاقطاعات فى بيوتهم ، ويأخذوا منهم المال والطعام والأثاث ، والمحاصيل غصبا وضربا ، اذا احتاج الأمر الى « البهدلة » و « الاحراق » .

وعن طريق الدس والمكاتبات ذهب اقطاع ابن اياس الوافر

غصبا للمماليك الغورية ، غير أنه لم يبق بغير اقطاع مدة طويلة ، اذ وقف للسـلطان الغورى أوائل سنة ١٥١٠ م بحكايته مطولة وقدمها اليه وهو فى طريقه للعب الكرة بميدان القلعة (كرة البولو) ، فاستجاب السلطان لشكوته ، ورد عليه اقطاعه ، ومدحه ابن اياس من أجل ذلك بقصيدة مطولة من نظمه المعتاد .

غير أن ابن اياس لم يكن من المعجبين حقا بالغورى وسياسته ، يشهد بذلك ما كتبه بصدده بعد رحيله فى كثير من المناسبات بكتابه الكبير فى التاريخ ، واسمه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) وهذا الكتاب الشامل عن تاريخ مصر عالج باختصار تاريخ مصر حتى نهاية العصر الأيوبى ، وما كتبه عن العصر المملوكى حتى زمن السلطان قايتباى يغلب عليه العجلة والسرعة . على أن ابن اياس أخذ منذ بداية عهد قايتباى ، يسهب فى وصف الأحداث ، ويورد بالتفصيل تراجم كبار الموظفين ، وما جرى من الوفيات فى كل شهر . واشتهر فى الأجزاء المعاصرة فى تاريخه بدقة الملاحظة واستقصاء الحقائق وقسوته فى الحكم على الناس وكان على جانب كبير من القدرة على النقد ، فلم يقنع بسرد الحوادث والوفيات والوقائع على نحو ما جرى عليه المؤرخون السابقون له ، بل صار يشرح ويفلسف ما يجرى من الأحداث ، وشجعه على ذلك اتصاله

الوثيق بأعيان البلاط المملوكي والسلطان ، وما كان يبلغه به أخوه من أخبار القلعة ، مقر السلطان ، ولا سيما ما يتعلق بسلاح المدفعية وما كان من اهمال أمرها زمن السلطان الغوري. يضاف الى ذلك ما أورده عن الادارة المالية الفاسدة ، وقد تجاوز ابن اياس الحد في لوم الغوري على ما تعرضت له البلاد من أزمة مالية حادة .

ومما يجعل لبدائع الزهور أهمية كبيرة ، أنه المصدر العربي الوحيد الذي يعالج مستهل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) . فتناول نظام الحكم العثماني في مصر بالنقد والسخرية أحيانا لاهمال مصالح المصريين . برغم ما أحاط السيادة العثمانية من هيبة ورهبة .

والواضح أن كتاب ابن اياس يزخر بألفاظ وتعابير وجمل لا تمت للعربية الفصحى بصلة ، ولعل ذلك يرجع الى ذيوع اللسان التركي بين طبقات الخاصة ، والى دخول كثير من الألفاظ الأجنبية في مصطلح الجيش والبحرية والدواوين .

نعود لنقول : ان هذا الكتاب الشامل لتاريخ مصر منذ أقدم العصور الى أوائل العهد العثماني ، هو الذي جعل ابن اياس خليقا بمركز الزعامة بين معاصريه من المؤرخين في مصر الاسلامية ، أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وأوائل القرن السادس عشر الميلادي .

وبدأ ابن اياس تأليف موسوعته التاريخية الشهيرة حوالى سنة ١٤٩٣ م ، وظل معنيا بها حتى أواخر أيامه ، فجاءت فى (١١) جزءا ، وكان فى عزمه أن يضيف اليها لتكتمل (١٢) جزءا ، لولا موته سنة ١٥٢٤ م ٠

وقد أطلعت على صورة فى أربعة أجزاء تملكها مكتبة الفاتح فى أسطمبول التركية وهى غير متتابعة الا أنها بخط ابن اياس ، وفى نهايتها نعرف أنه انتهى من الجزء الرابع أوائل سنة ٩١٠ هـ (١٤٩٥ م) ، ومن الجزء الخامس أواخر تلك السنة الهجرية نفسها ، ومن الثامن أواسط سنة ٩١٣ هـ (١٥٠٧ م) ، ومن الجزء الحادى عشر أواخر ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) ٠ ووعد ابن اياس فى نفس الصفحة التى وردت بها الاشارة الأخيرة أنه سوف يقوم على كتابة الجزء الثانى عشر ، وهو ما لم يكتبه بسبب رحيله عن عالمنا الفانى ، وهناك احتمال أن يكون الرجل قد كتبه بالفعل ولم يعثر عليه أحد حتى الآن ٠

ثم تناول النساخون هذا الكتاب ، فنقلوا منه نسخا بعضها كاملة وافية ، وبعضها مختصرة ناقصة ، والثانية هى أغلب ما بأيدينا منه حتى الآن ، ومن احدى هذه النسخ الناقصة نشر الكتاب فى القاهرة ، فجاء بعيدا عن الأصل ، خلوا من أهم جزء من أجزائه ٠

وكان أمرا طيبا أن تتدارك هذا النقص جمعية المستشرقين الألمان باستامبول (ثم ببيروت) ، فنشر الأستاذ/ كالة والدكتور/ محمد مصطفى العجمى ، والمرجوم سوير تهيم ، أجزاء ثلاثة من هذا الكتاب ثم عمل د٠ محمد مصطفى العجمى على اخراج بقية أجزاء الكتاب بجهد مشكور ألقى جله على عاتقه كذلك أخرج فهارسه وقد استحق عام ١٩٨٧ م جائزة الحكومة المصرية تقديرا له ولجهده المميز فى بدائع الزهور لابن اياس ٠

كما نأمل أن تحل مشكلة المحقق مع هيئة الكتاب فى اخراج فهارس الكتاب فى طبقة شاملة كى تفيد القراء والباحثين ، تلك الفهارس التى خرجت فى طبقة محدودة جدا لصالح جمعية المستشرقين الألمان ٠

●

من مؤلفات ابن اياس الأخرى فى التاريخ كتاب (عقود الجمان فى وقايع الأزمان) ، وهو مختصر مستقل لتاريخ مصر، وليست له أية علاقة بكتابه بدائع الزهور الكبير أو النسخ المختزلة منه كما يذهب بعض الباحثين ٠

وله كتاب (نزهة الأمم فى العجائب والحكم) وهو تأليف صغير فى تاريخ العالم ٠

وكتاب (مرج الزهور فى وقائع الدهور) وهو مؤلف شعبى فى قصص الرسل والأنبياء عليهم السلام ، وهناك احتمال أن يكون هذا الكتاب لمؤلف آخر غير ابن اياس ، على الرغم من اشارته هو لبعض محتوياته فى الفصل السابع من الجزء الأول لبدائع الزهور .

وله أيضا كتاب (نشق الازهار فى عجائب الأقطار) وهو كتاب فى علم الفلك والهيئة وتركيب الكون ، وآثار مصر الفرعونية وملوكها . وذكر ابن اياس فى مقدمته لهذا الكتاب أنه قصد من تأليفه أن يجمع فيه أغرب ما سمع وأعجب ما رأى ولا سيما عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة ـ وكان فراغة منه سنة ١٥١٨ م ، وكثيرا ما استمد منه علماء أوربا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

على أن شهرة ابن اياس تستند بالكلية الى كتابه المشهور بدائع الزهور ، اذ صار به عمدة المؤرخين فى أحوال دولة المماليك وأخبارها مدة الطور الأخير ، والمرجع الرئيسى لحوادث فتح العثمانيين لمصر ، فى أسلوب بديع ـ رغم ضعف اللغة ـ ولذا ميزه مارجليوث عن جمهرة المؤرخين المسلمين فى مصر وغيرها بقوله : « ان أسلوبه فى الكتابة والتأليف ، ونمطه فى

التفكير ، ينم كل منهما عن فردية واستقلال فى الرأى قل أن يقر به معظم المؤرخين » .

●

أما عن أخلاق ابن اياس ، فلا سبيل لمعرفة ما اشتهر به من صفات عند معاصريه ، مادام الموجود من كتب المعاصرين والمتأخرين لا ينبىء عنه بشىء البتة ، على أن كتبه التى ألفها ، وملاحظاته التى أودعها اياها عن نفسه وعن حوادث عصره ورجاله ، تدل على الكثير من كنه الرجل ، فضخامة مؤلفاته برهان على أنه ظل طوال حياته مجدا فى الكتابة ، ودأبه على تدوين الحوادث يوما بيوم ، وشهرا بشهر فى الأجزاء المعاصرة من تاريخه يشهد بدقة ملاحظته وشدة استقصائه للحقائق .

كما أن تناوله للحكم العثمانى فى مصر بالنقد والسخرية أحيانا لاهماله رجاله مصالح المصريين وذلك برغم ما أحاط السلطة العثمانية فى القاهرة والعالم الاسلامى من رهبة يعطيه مكانة سامية بين المؤرخين وغير المؤرخين .

ونحن نرجح أن نقد ابن اياس لنظام الحكم العثمانى كان سببا جوهريا فى خفاء ترجمته من كتب التراجم (١) .

---

(١) من الذين عاصروا ابن اياس من المؤرخين : عبد الرحمن السيوطى ، وعبد الباسط بن خليل ، وحسن الطولونى ، وابن زينك الرمال ، ومحمد بن طولون الدمشقى .

السيوطى

موسوعى يرهق الباحثين !

عاصر ابن اياس صاحب بدائع الزهور أربعة من المؤرخين، وهم : عبد الرحمن السيوطى ، وعبد الباسط بن خليل ، وابن الطولونى (محمد بن طولون الدمشقى) وابن زبثل الرمال .
ولكل من هؤلاء فضل يعرفه جل الباحثين فى التاريخ الاسلامى ولهم السهم الظاهر فيما تجمع للتاريخ الاسلامى من تراث محفوظ ، وان كان لم يبلغ أحدهم مبلغ ابن اياس ، أو يقربه فى المقدرة على التأليف الموسوعى فى التاريخ ، ولعل ذلك راجع فى المقام الأول الى أن ابن اياس قصر نفسه على الكتابة فى ذلك الفرع وما يتصل به فقط ، هذا عدا نظمه للشعر التقليدى أحيانا، على حين أن معاصريه أولئك اشتغلوا بالتاريخ وغيره من العلوم والفنون والصناعات .

*

ومثل ذلك جلال الدين السيوطى صاحب الأخبار الطوال

فى أشتات العلوم فى عصره ، فانه لم يترك ميـــدانا من ميادين المعرفـــة دون أن يجرى فيه قلمه ، هـــذا فضـــلا عن تداخله فى بعض المسائل العامة فى عصره .

ولد السـيوطى : جـلال الدين عبد الرحمن بن محمـد السيوطى ، سنة ١٤٤٥ م فى القاهرة ، من أسرة ينتهى نسبها الى محلة الخضيرية ببغداد .

ويظهر لنا أن هذه النسبة ليست بعيدة من الشك ، على الرغم من أن السيوطي نفسه فى كتابه حسن المحاضرة (١/١٥٥) أكد مرجحا هـذا النسب ، ذلك أنه كان بأسـيوط المصريـة وبالقاهرة كذلك موضع اسمه الخضيرية زمن السيوطى ، ونعتقد أنه ربما كان ترجيحه لمحلة بغداد من باب ارجاع أصله الى جهة بعيدة عظيمـة الشأن ، لا سيما أنه جهد فى أحد كتبه الصغرى أن يقول كذلك انه انصـارى جعفرى الأرومة ، وان جده من أم شريفة النسب .

جد السيوطى جاء الى أسـيوط ، وعاش بهـا زمن الدولة الأيوبية ، وأقامت أسرته بها جيـلا بعد جيل ، وأخرجت رجالا نابهين فى المجتمع الأسيوطى فى العصور الوسطى ، فمنهم نائب الحكم (القـاضى) ، والمحتسب ، والتاجر ، والمتمول الخير ، ومنهم من اتصل بالأمير شيخو الناصرى ابان قيامه على اخمـاد

ثورة الأحدب بالصعيد سنة ١٣٥٣ م ، فى عهد السلطان صالح بن الناصر أحمد الذى تولى من ١٣٥١ م الى ١٣٥٤ م ، وهذا الأمير هو صاحب الجامع والخانقاه المعروفين بسويقة منعم فيما بين الصليبة والرميلة بالقاهرة الحالية ، ولعل المزيد من التفاصيل يجدها القارىء فى المواعظ والاعتبار للمقريزى (١/٣١٣ ، ٤٢٠)، وفى حسن المحاضرة للسيوطى (١/١٥٥) .

أما محمد أبو عبد الرحمن السيوطى فهو آخر من أقام من تلك الأسرة بأسيوط ، انقطع من دون رجالها جميعا لطلب العلم والتعليم ، ورحل من أجل ذلك فى حداثته الى القاهرة ، وأفاد على ما يظهر من صلة سلفه بالأمير شيخو ، فتولى درس الفقه بالجامع الشيخونى ، وخطب بجامع أحمد بن طولون ، وألف كثيرا فى الفقه والنحو ، وتوفى عشر الخمسين ، سنة ١٤٥١ م ولما يبلغ ابنه عبد الرحمن ست سنين .

وقد قدم السيوطى لأبيه فى حسن المحاضرة ، وبغية الوعاة فى طبقات النجاة ترجمة شاملة ومفيدة . والسيوطى نفسه غنى بمترجميه المعاصرين والمتأخرين والمحدثين ، اذ يوجد له عدا ترجمته الذاتية فى حسن المحاضرة ، ترجمة فى كل من السخاوى ، والامام الشعرانى ، والغزى ، والبورينى ، وابن العماد الحنبلى ، وابن اياس ، وعلى باشا مبارك ، وأصحاب دائرة المعارف ، وفى ابن طولون الدمشقى صاحب الفلك المشحون ، وفى فيليب حتى .

الا أنه فى الفلك المشحون اشـارة الى ترجمة ذاتية أخرى للسيوطى فى كتابه بغية الوعاة ، غير أن المطبوع من هذا الكتاب لا يشمل ترجمة له البته .

وذكر اليمنى فى السنا الباهر (٧٧) أن للسـيوطى ترجمة ذاتية ثالثة فى كتاب له اسمه التحدث بنعمة الله تعالى ، وهـذه عدا ما هنالك من تراجم أخرى بقلم تلميذيه الشاذلى والداودى .

وكانت والدة عبد الرحمن أم ولد تركية ، أنجبته وأبوه بالغ فى السن مبلغ النضج ، فجاء عبد الرحمن ناضجا من يومه على حد قول علماء الأجناس . وكأنمـا توسم فيه والده شيئا من ذلك ، اذ قرت به عيناه حين رزقه وهو مشرف على الخمسـين ، فعنى بتعليمـه أشد عناية ، وحفظه جزءا كبيرا من سور القرآن ، واستصحبـه أكثر من مرة الى مجلـس ابن حجر العسـقلانى فى علم الحديث .

وغدا الطفل عبد الرحمـن محظوظا كذلك فى أوصيائه ، اذ لحظوه برعايتهم ونظرهم ، ونجحوا فى الحاقـه بوظيفـة فى الجامع الشيخونى بعد وفاة أبيه ، ولا أعرف نوعية هذه الوظيفة التى يلحق بها طفل فى السادسة من عمره .

على كل تمكن عبد الرحمن أن يختم القرآن كاملا ، وهو دون الثامنـة من عمره ، فدل بذلك على ذاكرة قوية وحافظـة

واعية . ثم أخذ فى طلب العلم بأنواعه ، فلم يتعاص عليه فرع أو يتعاظمه فن الا الحساب فانه ثقل عليه النظر فيه لعدم ملاءمته طبيعته ، والا المنطق فانه كرهه وعزف عنه لسبب مشابه .

أما ما عدا ذلك من العلوم كالتفسير وعلم الحديث ، والفقه، والنحو والمعانى والبديع والبيان على طريقة أهل البلاغة من العرب الفصحاء لا على طريقة العجم والفلاسفة ، والجدل وأصول الفقه ، والتصريف والانشاء والترسل ، والفرائض والقراءات والطب ، فالسيوطى نفسه قال فى كتبه انه درسها حتى بلغ فيها درجات متفاوتة فى الكمال ، وانه رزق التبحر فى السبعة الأولى منها حتى فاق أشياخه كلهم فضلا عمن هو دونهم علما وزمنا ، وأنه اخترع علم أصول اللغة وورثه وانه وصل الى مرتبة « المجتهد المطلق » فى الحديث والفقه والعربية باجتماع « آلات الاجتهاد » كلها لديه ، ولو شاء أن يكتب فى اية مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، مع الموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدر على ذلك كله تماما فى غير عناء . ولا غرو فى ذلك مادام أن السيوطى نفسه قال مرة لشيخه السخاوى وهو يحاوره نظما :

« علمى كبحر من الأمواج ملتطم » .

بلغ السيوطى ذلك المقام الزاخر من العلم مع المباهاة

العريضة بكيفه وكمه لديه بعد حياة دراسية طويلة بالقاهرة ، وأسفار كثيرة فى محافظات مصر وغيرها . وتفصيل ذلك بتقريره أنه درس على ستمائة شيخ من شيوخ عصره بمختلف البلاد ، وأنه سافر من أجل ذلك الى مراكز العلم بدمياط والاسكندرية ، والمحلة الكبرى والفيوم ، ومكة حيث حج وجاور سنة كاملة . وقد تجمعت لديه أثناء ذلك كله براءات وشهادات واجازات كثيرة، أولها اجازة بتدريس اللغة العربية سنة ١٦٤١ م ، وعمره وقتئذ سبعة عشر عاما ، ومن المعروف أنه بدأ التأليف تلك السنة بكتاب فى شرح الاستعاذة والبسملة .

على أن السيوطى لم ينصرف الى تدريس اللغة العربية على ما يظهر ، بل باشر تدريس الفقه الاسلامى بالجامع الشيخونى الذى لم تنقطع عنه وظيفته منذ وفاة أبيه ، وكان تعيينه هناك بسفارة شيخه البلقينى سنة ١٤٦٥ م . ثم تصدى السيوطى للافتاء واملاء الحديث ، بجامع ابن طولون سنة ١٤٦٧ م ، وأضيف اليه تدريس الحديث ووظيفة الاسماع بالخانقاه الشيخونية سنة ١٤٧٢ م ، بمساعدة الأمير اينال الأشقر أو السلطان سيف الدين اينال الذى تولى من ١٤٥٣ م الى ١٤٦٠ م فيما بعد ، كما تولى مشيخة التصوف بتربة برقوق نائب الشام التى تقع بباب القرافة الحالية ، بعناية ابن بلدته (أبو الطيب السيوطى) .

وبقى السيوطى متوليا تلك الوظائف كلها حتى ناهز الأربعين من عمره ، ثم نقل الى مشيخة الخانقاه البيبرسية سنة ١٤٨٦ م ، وهى تعد أكبر خوانق القاهرة وأوسعها أوقافا فى عصره كما يقول المقريزى .

أما صاحب الفضل فى الحاقه بالبيبرسية فهو الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز العباسى . ومن ثم انقطع السيوطى عن التدريس والافتاء والاملاء والاسماع ، وأخذ فى التجرد للعبادة كما قال الشعرانى ، أو أنه أنجمع وتمشيخ على قول السخاوى . وشرع السيوطى منذئذ فى تحرير مؤلفاته ، وربما ألهاه التكاثر عن الاتقان ، فلم يمعن فى بعض الأحيان ، بل جرى قلمه بالتأليف السريع حتى أربت كتبه على الخمسمائة ، سوى ما غسله ورجع عنه ، ولذا جاءت أكثر مؤلفاته جمعا لا تأليفا .

ولنا ملاحظة عابرة فى هذا المجال أنه لم تقتصر كثرة المؤلفات على السيوطى وغيره من المؤلفين المسلمين ، بل صدقت تلك الظاهرة كذلك على بعض المؤلفين الغربيين فى العصور الوسطى ، ومثال ذلك رامون لول الاسبانى ، اذ بلغت مؤلفاته خمسمائة تقريبا .

وهال المعاصرين للسيوطى والمتأخرين والمحدثين أن ينسب هذا الكم الضخم من المؤلفات الى مؤلف واحد هو السيوطى ،

وفسره مؤرخنا السخاوى بأن السيوطى اختلس من تصانيف ابن تيمية وابن حجر العسقلانى والسخاوى نفسه وغيره من المؤلفين ، من مجموعة عثر عليها كلها بمكتبة المدرسة المحمودية ، وأنه عدل فيها يسيرا ، وقدم وأخر ، ونسبها بعد أن هول فى مقدماتها .

غير أنه مهما قيل فى هذا المجال ، فان تهمة الاختلاس لايمكن أن تنصب على جميع مؤلفات السيوطى ، بل لدينا من حقيقة الحالة العلمية فى عصور السيوطى ، ومما يستطاع استنتاجه من نفسيته وعقليته وأخلاقه وأحواله ، ومن بساطة المسائل التى أفرد لها كثيرا من كتبه ، ومن أحجام تلك الكتب التى أدمجها فى تعداده الضخم ، ما يساعد على تعليل ذلك التكثر الخارق فى التأليف تعليلا معقولا .

ذلك أن عصر السيوطى وهو الحقبة الأخيرة من عهد المماليك بمصر المستقلة وهو عصر الجمع والتلخيص والتكميل والشرح والحواشى ، وليس به فى الواقع من المؤلفات ـ فيما عدا الكتب التاريخية ـ ما يصح أن يوصف بغير ذلك من الصفات .

ومثال ذلك من كتب السيوطى الكبرى كتاب تكملة تفسير القرآن للشيخ جلال الدين المحلى ، والمعروف أن السيوطى أنهاه فى أربعين يوما !! ، وكتاب طبقا الحفاظ ، وهو تلخيص

وتكملة للذهبى ، وكتاب لب اللباب فى تحرير الانسان ، وهو اختصار لعز الدين بن الأثير ، واستغرق السيوطى فى انجازه عشرة أيام فقط !!

ثم أن السيوطى أعتقد فى نفسه أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق فى الحديث النبوى الشريف والفقه واللغة العربية ، وأنه لو شاء أن يكتب فى كل مسألة مصنفا تاما لاستطاع ، وأنه المبعوث على رأس المائة التاسعة للهجرة ، وأنه رأى النبى عليه الصلاة والسلام وخاطبه فى اليقظة والمنام خمسين مرة ، فتطلبت منه تلك الدعاوى أن يكتب كثيرا ليدعم أقواله .

ونضيف الى ذلك أن السيوطى عاش غضوبا ، تكلفه الغضبة الواحدة رسالة أو أكثر يكتبها فى يوم أو ليلة . ليرد بها على من أغضبه أو خالفه أو سخر منه .

قال السيوطى نقلا عن الامام الشعرانى فى ذيل الطبقات الكبرى (ص ٤) : « وخالفنى أهل عصرى فى خمسين مسألة ، فألفت فى كل مسألة مؤلفا ، بينت فيه وجه الحق » .

وهذا عدا ما كتبه لتبرير موقفه من مسائل معينة كما يذهب بدائع الزهور لابن اياس .

ومن الأمثلة الدالة على أثر ذلك كله فى عدد مؤلفات السيوطى كتاب ارشاد المهتدين فى نصرة المجتهدين ، وكتاب

الرد على من أخلد الى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض ، وكتاب التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة ، وكتاب الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف ـ وقد أشار السيوطى الى مسألة اجتهاده ومبعوثيته اشارات خفيفة فى كثير من مؤلفاته غير أنه خلع النقاب تماما فى هذا الكتاب ، اذ قال : « فان من ينفخ أشداقه ويدعى مناظرتى ، وينكر على دعوى الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه يعارضنى ويستجيش على بمن لو اجتمع هو وهم فى صعيد واحد ، ونفخت عليهم نفخة واحدة صاروا هباء منثورا . » (فيليب حتى فى مقدمته لكتاب نظم العقيان) .

ومثال آخر كتاب تنوير الحلك فى امكان رؤية النبى والملك . ثم انه دأب على التدخل فى المسائل العامة فى عصره، ومثل ذلك قيامه فى مسألة الشاعر ابن الفارض سنة ١٤٧٠ م ، وكتابته فى ذلك مقامة اسمها قمع المعارض فى نصرة ابن الفارض، وافتاؤه من غير تفويض بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة، لأن الاجماع منعقد على منع البناء فى شطوط الأنهار الجارية ، وله فى ذلك كتاب .

ثم ان السيوطى أحب التسلى بالكتابة فى موضوعات واهية تافهة ، ومثل ذلك كتاب الأسفار عن قلم الأظفار ، وكتاب

الايضـــاح فى علم النكاح ، وكتـــاب بلوغ المـآرب فى قص الشارب ، وكتاب الوديك فى فضل الديك ، وكتاب مسألة ضربى زيدا قائما ، وكثير من هذا لا يعدو كراســـة أو رسالة صغيرة أحيانـــا •

ومهما يكن فليس لجميع جولات السيوطى فى علوم عصره ومسائله الخاصـــة والعامة متسع كاف بهذه الدراسة الموجزة ، اذ البحث محدود بعنوانه حيث أننا قصرنا الكلام على الجانب التأريخى فقط ، وتعريفنـــا بالســـيوطى أردنـــا به تقديره بين المؤرخين بمصر الاسلامية فى حقبـــة معينة وايضـــاح ذلك ، فيجب الا تطغى كثرة القول فى غير ذلك من اشـــتات نشاطه على ما هنالك من غرض أصلى ، وهذا بالاضافة الى أن مؤلفاته التاريخية ليست ســـوى شىء قليل بالقيـــاس الى كتبه فى غير التاريخ من العلوم • ومن تلك المؤلفات :

ــ كتاب : « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » وهو من آشـــهر ما كتبه فى التاريخ ، تنـــاول فى الجزء الأول منه ما ورد عن مصر فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وعند المؤلفين القدامى ، وتاريخ مصر منذ الخليقة ، وما بها من عجائب ، ثم ما كان من فتوح مصر ، وما أقامه المســـلمون من منشآت • ثم أشـــار الى من كان بمصر من طبقات الفقهاء

والمحدثين والزهاد والصوفية وأئمة النحو واللغة والحكماء والأطباء والمنجمين والقصاصين والمؤرخين والأدباء .

وعالج السيوطى فى الجزء الثانى أمراء مصر حتى زمن الفاطميين ، ثم أورد باختصار تاريخ الفاطميين والأيوبيين ، وأشار الى انتقال الخلافة العباسية الى مصر ، والى ما كان للسلاطين المماليك من نظم ورسوم وتقاليد ، ووصف معالم مصر فى زمنه ، كالجوامع والمدارس . وفيضان النيل ، وما كان بمصر من أشجار ونباتات وخضراوات . يضاف الى ذلك اهتمامه بفئات القضاة على اختلاف مذاهبهم ، وهذا الكتاب له طبعة بالحجر بالقاهرة سنة ١٨٦٠ م ، وعن هذه الطبعة جرى نشره سنة ١٢٩٩ م ، ١٣٢١ هـ بالقاهرة . والجديد بالذكر أن هذا الكتاب ألفه السيوطى على عهد السلطان قايتباى ، واعتمد فى تأليفه على ثمانية وعشرين مؤلفا عددها فى مقدمته .

ـ كتاب تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين .

ـ كتاب تاريخ السلطان الأشرف قايتباى .

ـ كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور وهو كتاب شعبى فى التاريخ العام .

ـ كتاب تاريخ أسيوط .

ـ كتاب كوكب الروضـة وهو تاريخ جزيرة الروضـة المصرية الواقعة جنوبى القاهرة ، ألفه السيوطى سنة ١٤٨٩ م ، ونقل فيه كثيرا مما كتب المقريزى فى هذا الموضوع .

ـ كتـاب تاريخ العمر وهو عبـارة عن ذيل على كتـاب (ابناء الغمر فى إبناء العمر) لابن حجر العسقلانى .

ـ كتاب المنتقى من تاريخ ابن عساكر .

ـ كتاب الشماريخ فى علم التاريخ وهو عبارة عن رسالة قصيرة فى أصـل اتفاق المسلمين على جعل هجرة الرسـول صلى الله عليه وسلم مبدأ للتأريخ الاسـلامى ، واجماعهم على اعتبار شهر المحرم أول الشـهور الهجرية ، مع شرح وتعليـل لأسماء الشهور الهجرية .

وللسـيوطى عدا ذلك كتب كثيرة فى التراجم والطبقـات ومنهـا :

ـ كتاب نظم العقيان فى أعيان الأعيان .

ـ كتاب بغية الوعاة فى طبقات النجاة .

ـ كتاب الملتقط من الدرر الكامنة .

هذا فضلا عن مؤلفات فى سائر علوم عصره .

وقيل بحق أن السيوطى لم يكن مؤلفا فى معظم الكتب التاريخية التى صنفها وغير التاريخية ، بل انه جمع فأوعى فقط ، واختصر ولخص فحسب ، وربما نسب لنفسه مؤلفات لغيره ، كما قرر السخاوى .

على كل فليس ذلك بالقليل أو بالغريب فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، ولم يسلم من هذه التهمة كل من المقريزى وأبى المحاسن بن تغرى بردى وهما من أساطين المؤرخين بمصر الاسلامية . ثم انه ليس من الانصاف فى شىء أن يقاس السيوطى وغيره مقاييس اليوم ، بل ان فضل السيوطى فيما صنع على وجه العموم واضح وان جاء فضلا مشوبا ، اذ حفظ الرجل بتلك الطريقة كتبا مفقودة أصولها حتى الآن ، ولولا قلمه لما وصل منها شىء للمتأخرين .

ثم ان السيوطى وضح بطريقته الخاصة هذه حال العلوم والعلماء فى عصره ، ونفق كتبا ظلت بعيدة عن متناول الناس العامة لندرتها أو ضخامتها ، وانتشرت تلك الكتب فى ثوبها المختصر الى جميع البلاد الاسلامية ، من المغرب العربى الى الهند واليمن ، وذاع معها صيت عالمنا الموسوعى السيوطى ذيوعا يشهد به وجود الكثير منها بخطه ، فى مختلف المكتبات الاسلامية وغير الاسلامية القديمة ، ولاسيما بالهند .

ومما أعان السيوطى على التفرغ لكتابة ما كتب من مؤلفات

ضخمة ورســائل صغيرة ، أنه ظل طويلا على مشيخة البيبرسية متمتعا بوظيفة وافرة ، منذ تولاها أواخر عهد قايتباى ـ وهذا على الرغم من قيــام بعض أعدائه من القضاة وغيرهم بالوقيعة به عند ذلك السلطان الطيب • غير أنه أغضب قايتبــاى آخر سنة من حكمه (١٤٩٥ م) ، بسبب طلوعه الى حضرته فى مسألة وعلى رأســه الطيلسان ، مخالفا بذلك التقاليد المرعية ، ومع أنه عوتب على مخالفته ، فانه أصر على صحــة موقفه وكتب فى ذلك رسالة اسمها « الأحاديث الحسان فى فضل الطيلسان » •

وامتنع السيوطى من بعد ذلك عن الطلوع الى السلطان ، بل رفض أن يصاحب العلماء لتهنئة قايتباى بالشفاء من مرض ألم به ، محتجا بأن عدم طلوع العلماء للملوك سنة ، وألف فى ذلك كتابا ســماه « رواة الأساطين فى عدم المجىء الى الســلاطين » •

ومع هــذا كله بقى الســيوطى على وظيفته الحــكومية بالبيبرسية حتى وفــاة قايتباى سنة ١٤٦٨ م ، غير أنه أفسح المجال لأعدائه بموقفه هذا كى يدسوا عليه ويؤججوا نار الفتنة ببلاط الســلطان الجديد محمد بن قايتبــاى الذى تولى من ١٤٦٨ م الى ١٤٩٥ م ، وكأنمــا أحس الســيوطى بما ســوف يناله قريبا من عزل عن وظيفتــه الرغيدة ، فحسن للخليفــة

المتوكل على الله عبد العزيز العباسى سنة ١٤٩٦ م أن يوليه قاضيا كبيرا على جميع القضاة بمصر والشام وسائر الممالك الاسلامية المجاورة ، وأن يجعل بيده الولاية والعزل فيهم مطلقا ، وهى وظيفة لم يحرزها قط فى العالم الاسلامى سوى القاضى تاج الدين ابن الأعز فى الدولة الأيوبية ، بعد أن صار لتلك الدولة سيادة فعلية فى جميع بلاد الشرق الأدنى . على أن السيوطى لم يفكر فى هذه الوظيفة لتكون له مخرجا من البيبرسية فحسب ، بل يظهر أنه أراد أن يستخدمها فى النيل من أعدائه ، وربما رأى فيها تحقيقا لما قال من وجوب قيام الخلافة القطبية الباطنة فوق الخلافة العباسية الظاهرة !!! ولنراجع فى ذلك كتاب السيوطى (التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة) (دار الكتب المصرية رقم ٩٨ مجاميع) .

ثم قامت القيامة بين القضاة والناس ، حين شاع أن الخليفة السلطان عهد للسيوطى بهذه الوظيفة ، ومازال القضاة بالخليفة حتى أشهدوا عليه بالرجوع عنها ، واعترف للملأ بأن السيوطى هو الذى اقترحها عليه كما يسجل ذلك ابن اياس فى بدائع الزهور (٣٠٧/١) .

ثم حدث فى سنة ١٤٩٧ م ، أن قطع السيوطى جعيلة الصوفية فى الخانقاه البيبرسية ، بحجة أنهم خانوا طريقتهم

ونسوا صوفيتهم ، فثار ثائرهم عليه ، وحملوه بأثوابه ورموه بفسقية الخانقاه ، وكادوا أن يقتلوه .

هنا اغتنم أعداؤه هذه الفرصة ، ومنهم الأمير طومان باى الدوادار وأعتقد أن هـذا الأمير هو نفسه الذى حاول القيام بانقلاب ضـد أشرف جانبلاط سـنة ١٤٩٩ م ولكن الأمر لم يستقر له الى أن تولى الغورى عرش البلاد .

المهم أن السيوطى حوكم ، واتهمه القضـاة بأنه طمـاع وأن طعمه أفسـده ، وأن تفـكيره فى الاسـتيلاء على دراهم الصوفية الفقراء جعله غير صالح للبقاء فى مشيخته ، ولذا عزل من منصبه .

واعتكف السيوطى فى بيته بجزيرة الروضة المصرية كمـا يؤكد ابن اياس فى بدائع الزهور (٢/٣٣٩) ، وفيليب حتى فى مقدمة العقيان (ص ز) ، حتى انه لم تفتح شبابيكه المطلة على على نهر النيل مدة ، وكتب رسـالة اسمها « تأخير الظلامة الى يوم القيامة » على أن محنته لم تنته بتلك الحادثة ، اذ تسلطن طومان باى الدوادار سنة ١٥٠٠ م ، وخاف السيوطى بطشـه ، فاختفى بجهة غير معلومة واعتقد أنه هرب الى أسيوط ، وظل مختفيا شهورا حتى وفاة السلطان وتولية قنصـوه الغورى بعد

أواخر تلك السنة . وعندئذ رجع السيوطى الى داره بالروضة . غير انه فضل البقاء فى عزلته ، ولم يقبل أن يعود الى الحياة العامة ، اذ عرض عليه الغورى وظيفة المشيخة بمدرسته ومدفنه بالقبة الزرقاء فرفض السيوطى معتذرا .

ومازال على انزوائه حتى قابل باريه سنة ١٥٠٥ م . وللسيوطى قبر بأسيوط يزار ، ولكنه ليس قبر عالمنا السيوطى فالمؤكد أنه دفن بحوش الأمير قوصون ، خارج باب القرافة بالقاهرة .

الأب والابن :

وصـــناعة التـــاريخ !

المؤرخ الذى معنا عاصر ابن اياس بن تغرى بردى وعاصر بالتالى السيوطى واســمه عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فهو سليل أسرة مملوكية معروفة بالقاهرة المملوكية منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل .

أما أبوه فهو الأمير المحدث خليل بن شاهين الذى عاصر المقريزى وهو مؤرخ بارز مشهور .

ولد ابن شــاهين ســنة ١٣٩٢م ببيت المقدس الشريف ، حيث عاش أبوه (جد عبد الباسط) أميرا من أمراء المماليك فى تلك النيابة الفلسطينية . وجاء ابن شاهين الى القاهرة فى شبابه ، ليدرس الحديث على إبن حجر العسقلانى ، غير أنه ترك ممارسة المعلم ، والتحق بالفرقة المملوكية المسماه اسم فرقــة أولاد الناس ، وهى الفرقة الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك .

وسرعان ما مضى ابن شاهين قدما فى طريق الوظائف الحكومية ، حتى انه جمع فى يده سنة ١٤٣٤ م وظيفة النائب والحاجب والمشد بالاسكندرية ، ويرجع بعض الفضل فى ذلك التعدد الى أنه كان محما للسلطان برسباى الذى قفز للعرش المملوكى سنة ١٤٢٢ م وظل به الى سنة ١٤٣٨ م . وتقلب ابن شاهين بعد ذلك فى كثير من المناصب والنيابات بمصر والشام ، حتى اذا كانت سنة ١٤٤٨ م أنعم عليه السلطان جقمق (تشقمق) برتبة أمير مائه مقدم ألف ، وهى أكبر رتبة حربية فى دولة المماليك الأولى .

ولابن شاهين عدة مؤلفات الا أن أهمها كتابه (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) الذى يقع فى مجلدين ، ثم جرى اختصاره فى مجلد واحد ، يضم اثنى عشر فصلا ، وهو الذى بقى حتى الآن . وفيه تناول الدستور المملوكى ، وبين الوظائف ، وما يتحصل من الأموال ومصارفها ، وما يتصف به الملك والملوك ، وأورد وصف الوظائف الدينية ، وما كان للخليفة والقضاة من سلطان . وشرح ما كان من اختصاص الوزراء ونائب السلطنة وأتابك العساكر والأمراء على اختلاف درجاتهم ، وفئات الجيش المملوكى ، والعاملين بالدور السلطانية ، وما يتصل بها من البيوتات والمطابخ والاصطبلات . ووصف القائمين على حراسة الجسور ، والولاة والموظفين بأقاليم الديار

المصرية والشامية ، فضلا عن أمراء العربان والأكراد والتركمان ، وما كان من علاقات مصر مع اليمن وديار بكر وقبرص • وختم ابن شاهين كتابه بما أورد من نوادر لحكام مصر منذ عهد الفراعنة حتى عصره •

ولهذا الكتاب أهمية خاصة فى دراسة نظم الدولة المملوكية ووظائفها ورسومها ولاسيما فى العصر المملوكى الثانى •

ولابن شاهين كتب فى الفقه والتفسير والتاريخ والتعبير يعرفها كل دارس لهذه الفترة ــ وكانت وفاته سنة ١٤٦٨ م فى شهر نوفمبر •

نعود لابن عبد الباسط بن خليل بن شاهين الحنفى لنقرأ أن أمه هى الأميرة (أصيل) أخت امرأة السلطان برسباى • أما مولد عبد الباسط فيرجع الى سنة ١٤٤٠ م ، بملطية ، حيث كان أبوه متوليا نيابتها من قبل السلطان حقمق وتقع هذه البلدة قرب أطراف آسيا الصغرى •

• وقضى الطفل والشاب عبد الباسط حياته الأولى متنقلا بين البلاد التى اتفق لأبيه الاقامة فيها موظفا مرضيا عنه ، أو طرخانا منسيا أو مغضوبا عليه كأى موظف فى السلطة المملوكية • تنقل مع أبيه بين حلب السورية والخليل الأردنية،

والقدس الفلسطينية ودمشق السورية وبغداد العراقية والقاهرة المصرية ومكة الحجازية وطرابلس اللبنانية والليبية ، فتلقى علوم عصره على يد شيوخ مختلفين ، ومنهم آبوه نفسه لذى أقرأه الكثير من الكتب فى شتى العلوم والفنون ، كما علمه اللغة التركية .

وشغف عبد الباسط كأبيه بالتحصيل الواسع ، فذهب مثله الى بلاد كثيرة من المغرب لم تعينها مراجع هذا العصر ، وتلقى هنالك دروسا في النحو وعلم الكلام والطب ، وواضح أنه اتقنها جمعاء . ثم استقر أخيرا فى القاهرة ، بعد وفاة أبيه خليل سنة ١٤٦٨ م ، فنزل بالخانقاه الشيخونية وتصوف ، وتعرف الي السيوطي متولي مشيختها ، والى يونس الرومى عالم المنطق ونزيل القاهرة ، وسمع كذلك علي غيرهما من علماء القاهرة ، واعتبره السخاوي مؤرخنا المشاكس من تلاميذه في علم التأريخ .

واشتغل عبد الباسط بعد ذلك بالتأليف فى مختلف العلوم والفنون ، ونظم ونثر ، غير أن المراجع التى بين أيدينا لا تنبىء بشىء يدل على غير ذلك من عمل رسمى وظف عليه فى الدولة المملوكية . ومن مؤلفاته المعروفة فى التاريخ : (نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين) .

وكتاب (نيل الأمل) وهو تكملة لتاريخ الذهبى .

وكتاب (الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم) وهو ذيل لتاريخ أبى المحاسن بن تغرى بردى المشهور .

وكتاب تاريخ الأنبياء الأكابر وبيان أولى العزم منهم .

وله عدا ذلك كتاب الوصلة فى مسألة القبلة .

وكتاب الحكمة والسر فى كون الوضوء .

وكتاب القول المستأنوس .

وكتاب شرح القانونشته فى الطب .

وكتاب عمدة الطالبين ورغبة الراغبين فى الفقه .

ووفقا لمعلوماتى ان هذه المؤلفات جميعها لاتزال فى ظلمات المخطوطات ، بمختلف مكتبات الشرق والغرب ، ما عدا الكتاب الأخير منها فانه مطبوع طبعا سقيما الا أنه أعيد طبعه أكثر من مرة بتحقيقات مختلفة .

ولعبد الباسط فوق هذا نظم منبعثر فى كتب معاصرية ، ولاسيما ابن اياس الذى نعته بلفظ « شيخنا » فى تاريخه أكثر من مرة ، ولابد أن مؤلفات عبد الباسط نفسها تحوى منه كثيرا ، ومن ذلك النظم أبيات فى مناسبات شتى مثل :

وفاء النيل بعد توقف طويل سنة ١٤٩٣ م ٠

ومرثية فى وفاة السيوطى سنة ١٥٠٥ م ٠

وفى هذين المثلين وغيرهما دليل على أن عبد الباسط عاش كابن اياس وأبى المحاسن بن تغرى بردى بين رجال الأدب المتقلبين فى هامش البلاط السلطاني ومجتمعات الخاصة فى دولة المماليك ٠

والواقع أن عبد الباسط مشابه لابن اياس فى كثير من الوجوه ، فكلاهما ابن أمير مملوكى ومن أولاد الناس على قول مصطلح العصر ، وكلاهما مؤرخ وشاعر ٠ على أن عبد الباسط امتاز عن ابن اياس بأنه ألف فى غير التاريخ من علوم زمنه ، كما امتاز على سائر علماء عصر وأهل القلم من المعاصرين له بأن ما لدينا من نماذج نظمه خلو من التهانى والمديح ، بل يدل على أنه عاش منعزلا مترفعا ، وجاء ما كتبه فيه كل من السخاوى وابن اياس مصداقا لذلك تماما ، اذ قال السخاوى عنه انه كان انسانا ساكنا أصيلا منجمعا عن الناس ، ووصفه ابن اياس بأنه كان طويل القامة ، نحيف الجسد ، يربى ذؤابة شعر فى رأسه على طريقة الصوفية ، وكان له أنف وافر جدا وكان ضنينا بنفسه ، وعنده يبس طباع مع شحم زائد ، وكان

معظما عند الأتراك والأمراء ، وكان عارفا باللغة التركية ، وفيه جملة محاسن ، وكان بقية السلف وعمدة الخلف •

وكانت وفاة عبد الباسط سـنة ١٥١٤ م ، بعد مرضـه بالسل الرئوى مرضا ألزمه داره أكثر من حول كامل ، ويلاحظ أن وفاته حدثت والمـائة العاشرة للهجرة كرت من أعوامهـا عشرون ، أى أنه كان من رجال القرن العاشر بقدر ما هو من أهل القرن التاسع •

مهندس يحترف التاريخ

الرجل الذي نكتب عنه الآن تلميذ من معاصري ابن اياس وهو أكثر خضرمة من عبد الباسط •

كان مولده سنة ١٤٣٢ م واسمه : حسن بن حسين الطولوني من أسرة يرجع أصلها الى زمن الدولة الأيوبية ، واشتغل كثير من أبناء تلك الأسرة بالهندسة والمعمار ، فكان منهم غالبا « معلم المعلمين » ، وهو كبير المهندسين فى مصطلح الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر ؛ ووردت هذه الوظيفة باسم معلم المعمارية فى أبى المحاسن فى النجوم الزاهرة وباسم معلم السلطان في نفس المرجع وعليه المعول فى العمائر السلطانية •

واستقام الحظ البادى تماما لهذه الأسرة في أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، حين تزوج السلطان برقوق الذي تولى حكم مصر من (١٣٨٢ م) الى (١٣٩٨ م) من أخت معلم المعلمين أحمد ابن الطولوني ثم من ابنته بعد طلاق عمتها ،

وأحمد هذا جد حسن بن الطولونى ، فلما جعله السلطان برقوق من أمراء المماليك برتبة أمير عشرة ، تزيا بزى الأتراك، وصار بذلك انسباًنا ناجحا ، وظل على امرته ووظيفته حتى وفاته سنة ١٣٩٨ م وهى السنة التى مات فيها برقوق .

نشأ حسن بن الطولونى على مهنة آبائه ، ودرج فى عزهم وجاههم وليس فى المراجع التى اعتمدت عليها ما يدل على شيء ألبتة بصدد حسين أبى حسن بن الطولونى الذى نترجم له فى هذه السطور القليلة ، وربما كان كذلك من رجال المعمار . "

الا أن حسن بن الطولونى مال الى الفقه والتاريخ والأدب والغناء والفروسية ، وهو ممن عدهم السخاوى من تلاميذه فى علم التاريخ ، ويظهر أنه اشتغل بوظيفة معمارية صغيرة فى أول أمره . ثم وقعت الفتنة التى أدت الى اعتلاء السلطان سيف الدين اينال عرش الدولة المملوكية من ١٤٥٣ م الى ١٤٦٠ م بعد أن اطاح بعثمان بن جقمق الذى لم يكمل العام فى الحكم — وعمل فيها حسن بن الطولونى بأن أشرف على حصار قلعة الجبل حتى سلمت حاميتها ، فجازاه اينال بأن عينه على وظيفتى معلم المعلمين وامارة المحمل . وشغل المعلم حسن الطولونى الوظيفة الأولى من هاتين الوظيفتين (١٧ عاما) ، تخللتها عهود السلاطين اينال (١٤٥٣ م) وأحمد بن اينال (١٤٦٠ م) وخشقدم (١٤٦١ م) ، وبلباى (١٤٦٧ م) ، وتيمور بغا (١٤٩٥ م) ،

وقايتبـاى (١٤٦٩ م) حتى سـنة ١٤٦٩ م ، فعزل عنهـا ذالك لسـبب لم تذكـره المراجـع . ثم اعـادة السـلطان قايتبـاى الى تلك الوظيفـة بسـفارة الأمير يشـبك ابن مهدى الدوادار ، فقـام على عمائر السلطان خير قيام ، ومنها جامع الروضـة المعروف بالمقسى على شـاطىء النيـل ، وهو الجامع الذى تم بناؤه سنة ١٤٩٠ م ، وأفتى بسببه السـيوطى نكاية فى قاتيباى بأن الاجماع منعقد على منع البناء على شطوط الأنهار الجارية .

وظل ابن الطولونى متمتعا برضا السلطان قايتباى ، وحظى عنده حتى أصبح وسيلة الناس لديه ، وسكن الروضـة حيث الجامع السلطانى ، وأقام به الأذكار والاحتفالات الدينية الحافلة ليلة الرابع عشر من كل شهر هجرى ، وأحضر قراء القـاهرة المشاهير ، ومؤذنيها ، وعلماءها ، ووعاظها ، ليشبع بهم حبه فى أنغام القراءة والأذان والوعظ . وحج ابن طولون سنة ١٤٩٢ م موسميا ، ورافقة السخاوى فى ركب ذالك العام ، فرأى من خير معلم المعلمين واحسانه وحسـن هيئته ما لم يجد له نظيرا بين حجاج تلك السنة . ثم توفى السلطان قايتباى سنة ١٤٩٥ م ، فظل المعلم حسن الطولونى على وظيفته ، بل ولاه السـلطان محمد بن قايتباى نيابة القلعـة كذلك ، فوجده خادما مخلصـا لقيامه بتحصين القلعة تحصينا عظيما أثناء فتنة الأمير قنصـوه سـنة ١٤٩٨ م .

ولابن الطولونى فى التاريخ كتاب (النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية) ،وهو مختصر يبدأ بتاريخ ظهور الاسلام ، وينتهى بحوادث السلطان طومان باى آخر سلاطين المماليك بمصر .

والراجح ان للطولونى كتابا ثانيا فى التاريخ على صورة المذكرات أو اليوميات ، غير أنه لا يوجد ما يدل عليه حتى هذه الأيام سوى قول ابن اياس فى ترجمته لابن الطولونى انه أنشأ تاريخا لضبط الوقائع (بدائع الزهور ٣/١٠٧) ونرى أن هذا الكتاب مدفون فى المجموعات الخطية التى تملأ مكتبات العالم .

ولابن الطولونى عدا ذلك شرح مقدمة أبى الليث والاجرومية . وعاش ابن الطولونى حتى سنة ١٥١٧ م ، أى أنه أدرك لفتح العثمانى لمصر والشام ، غير أنه عمى قبل ذلك بمدة طويلة وعزل عن وظيفته المعمارية ، واستقر فيها بعده ابنه شهاب الدين أحمد ، ثم ذهب أحمد هذا مع فئات المعلمين (المهندسين) والصناع الذين حملهم السلطان سليم الأول العثمانى من القاهرة الى اسطمبول ، ليقوموا له هناك بمثل ما رآه بعاصمة المماليك من المبانى والعمائر ، ثم رجع مع الراجعين من المصريين خفيفا الى القاهرة باذن السلطان العثمانى .

عثمانى يؤرخ لمصر العثمانية

فى بدائع الزهور لابن اياس الجزء الخامس منه (ص ٢٢٤ ـ ٢٢٨) ثبت يستغرق أربع صفحات كاملة من تاريخه الكبير فيها اسماء أولئك المعلمين والمهندسين الذين ذهبوا الى اسطمبول ، ثم رجعوا عنها الى القاهرة بعد قليل ، وفيه اسماء غيرهم من الشخصيات الكبرى والصغرى وأولهم الخليفة المتوكل العباسى .

وليت ابن اياس ذكر من ضمن هؤلاء احمد بن زنبل المحلى الرمال ، الرجل المؤرخ الذى عاصر ابن اياس ، ليته أورد بشأنه خبرا واحدا ، وكأن المراجع التى بين أيدينا تحالفت كلها كى ترهقنا معها ونحن نحاول التعريف بالرجل ، كل ما نعرفه انه كان موظفا بديوان الجيش العثمانى فى وقت ما ، وأنه رافق جيش سليم الأول أثناء الحروب التى انهت دولة المماليك فى مصر والشام ، وأنه حضر جنازة طومان باى آخر

سلاطين المماليك لتوزيع الصدقات على روحه بأمر السلطان العثمانى .

ولابن زنبل كتاب تاريخ أخذ مصر من الجراكسة (المماليك) ، وهو سجل واف لحوادث الفتح العثمانى ، من يوم خروج السلطان قنصوه الغورى من القاهرة لملاقاة العثمانيين بشمال حلب ، الى يوم رجوع سليم منتصرا الى استطمبول . ولهذا الكتاب مكانة كبيرة منذ تأليفه ، ومنه كتب نسخ شعبية ما برحت تسلية المقاهى بالقاهرة منذ القرن السادس عشر الميلادى ، وترجمه السهيلى الى التركية فى القرن السابع عشر ، ضمن كتاب له اسمه الدرة اليتيمة فى تاريخ مصر القديمة ، واعتمد عليه مارسيل ، أحد المستشرقين بالحملة الفرنسية على مصر ، فى كتابه الذى ألفه فى تاريخ مصر الاسلامية ، ولايزال مرجعا من الدرجة الأولى حتى الآن . وتوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة متفاوتة الحجم والقيمة بمختلف المكتبات العامة والخاصة ، ومنها نسخة شعبية مطبوعة طبعا رديئا ، وربما عنى به المعنيون بتاريخنا المصرى الاسلامى قريبا ، لتكون منه نسخة منشورة نشرا نهائيا مقارنا ، يطمئن اليه المؤرخون اطمئنانا علميا .

ولابن زنبل عدا ذلك من المؤلفات كتاب فى التاريخ باللغة

التركية ، وهو يشتمل على حكام مصر العثمانيين فى زمنه ، وكتاب تحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب ، وهو فى الجغرافيــة ، وكتــاب المقالات فى حل المشــكلات ، وهو فى علم الخط والرمــل والتنجيم ، وكلهــا مخطوط مهمل اهمالا تاما . والمعروف كذلك من أخبــار ابن زنبل أنه بقى حيا يرزق من وظيفته بديوان الجيش العثمــانى سنة ١٥٤٤ م ، وأنه أقام وقت ذاك ببلدة أبى قير الحالية قرب الاسكندرية ، وأنه توفى بعد سنة ١٥٥٢ م .



الفهـــرس

الصفحة

صــدر من هــذه السلسلة

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ـ عــلى ماهــر ،
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة ،
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة ،
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ـ غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ـ هؤلاء الرجــال من مصر ، ج ١ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ـ صــلاح الدين الأيوبى ،
د. عبد المنعم ماجــد ، ١٩٨٧

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية ،
د. على بركات ، ١٩٨٧

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،
د. محمــد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ،
محمــود فــوزى ، ١٩٨٧

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية ،
شــكرى القــاضى ، ١٩٨٧

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير ،
د. نبيــل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ــ اكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ــ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونيــة ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ــ المستشرقون والتاريخ الاســلامى ،
د. علي حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ــ فصــول من تاريخ حركة الاصــلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعيــة الخيرية (١٨٩٢ ــ ١٩٥٢) ،
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ــ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ،
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ــ الجوارى فى مجتمع القــاهرة المملوكية ،
د. علي السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ــ مصر القديمــة وقصة توحيد القطرين ،
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ــ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراســلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ،
د. محمــد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ــ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،
د. توفيــق الطويــل ، ١٩٨٨

٢٢ ــ نظــرات فى تاريخ مصــر ،
جمــال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ــ التصــوف فى مصر ابان العصر العثمــانى ج ٢ ، امــام التصوف فى مصر : الشعرانى ،
د. توفيــق الطويــل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ،**
د٠ نجـوى كامـل ، ١٩٨٩
٢٥ ـ **المجتمـع الاسـلامى والغرب ،**
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين : ترجمة : د٠ احمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
٢٦ ـ **تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثـة ،**
د٠ سعيد اسـماعيل على ، ١٩٨٩
٢٧ ـ **فتح العـرب لمصـر ، ج ١ ،**
تأليف : ألفريد ج ٠ بتلر ، ترحمة : محمد فريد أو حديد ١٩٨٩
٢٨ ـ **فتـح العـرب لمصـر ، ج ٢ ،**
تأليف : ألفريد ج ٠ بتلر ، ترحمة : محمد فريد أو حديد ١٩٨٩
٢٩ ـ **مصر فى عصر الاخشـيديين ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
٣٠ ـ **الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،**
د٠ حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٩
٣١ ـ **خمسون شخصية مصرية وشخصية ،**
شـكرى القـاضى ، ١٩٨٩
٣٢ ـ **هؤلاء الرجـال من مصر ، ج ٢ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩ .
٣٣ ـ **مصر وقضـايا الجنوب الافريقى : نظرة على الأوضـاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،**
د٠ خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
٣٤ ـ **تاريخ العـلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصـور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،**
د٠ يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ **أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠

٣٦ ـ **المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،**
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ **الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،**
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ **فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،**
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠

٣٩ ـ **قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،**
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ **الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،**
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ **محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،**
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ **تكوين مصر عبر العصور ،**
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ **رحلة فى عقول مصرية ،**
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ **الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١

٤٥ ـ **الحروب الصليبية ، ج ١ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم د. حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ **تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ـ ١٩٥٧) ،**
ترجمة : د٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ـ **تاريخ القضاء المصرى الحديث ،**
د٠ لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ـ **الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،**
د٠ زبيدة عطا ، ١٩٩١

٤٩ ـ **العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩) ،**
د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ،**
د٠ سهير اسكندر ، ١٩٩٣

٥١ ـ **تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، فى ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ـ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر :**
د٠ الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ **اربعة مؤرخين واربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،**
د٠ محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ **الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د٠ محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ـ **الحروب الصليبية ج ٢ ،**
تاليف : وليم الصورى : ترجمة وتعليق : د٠ حسن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ـ **المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراسة عن اقليم المنوفية**
د٠ حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٢

٥٧ ــ **مصر الاســلامية واهل الذمــة ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ــ **احمد حلمى سجين الحرية والصحافة ،**
د. ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ــ **الراسمالية الصناعية فى مصر ، من التمصــير الى التاميم (١٩٥٧ ــ ١٩٦١) ،**
د. عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ــ **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ــ **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،**
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ــ **هؤلاء الرجــال من مصر ، ج ٣ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ ــ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية،**
تاليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ، وســعيد عبــد الفتــاح عاشــور ، أعدهــا للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٤ ــ **مصر وحقوق الانســان ، بين الحقيقة والافتراء دراســة وثائقيــة ،**
د. محمد نعمــان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ ــ **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ ــ ١٩١٧)**
سهام نصار ، ١٩٩٣

٦٦ ــ **المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى ،**
د. نريمان عبد الكريم احمد ، ١٩٩٣

٦٧ ــ **مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الاصول التاريخية ،**
(أبحاث الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس

الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر : د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ ــ **الحــروب الصليبية ، ج ٣ ،**
تاليف : وليم الصــورى ، ترجمة : وتعليق : د٠ حسن حبشى ، ١٩٩٣

٦٩ ــ **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ ــ ١٩٥١) ،**
د٠ محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ ــ **أهــل الذمــة فى الاســلام ،**
تاليف : أ٠س٠ ترتون ، ترجمة وتعليق : د٠ حسن حبشى ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ ــ **مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ ــ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د٠ عبد الرؤوف احمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ ــ **رؤية الرحــالة المسلمين للأحوال المــالية والاقتصــادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ ــ ٥٦٧ هـ) ،**
أمينة أحمــد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ــ **تاريخ جامعــة القــاهرة ،**
د٠ رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ــ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، فى العصر الفرعونى**
د٠ سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ــ **اهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الاول ،**
د٠ سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ــ **دور التعليم المصرى فى النضــال الوطنى (زمن الاحتلال البريطــانى) ،**
د٠ سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

٧٧ ـ **الحـروب الصليبية ، ج ٤ ،**
تأليف : وليم الصـورى ، ترجمـة وتعليق : د. حسـن حبشى ، ١٩٩٤

٧٨ ـ **تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩) ،**
نعمات أحمد عتمان ، ١٩٩٥

٧٩ ـ **تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،**
تأليف : فريد دى يونج ، ترجمـة : عبد الحميـد فهمى الجمـال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ **قنـاة السـويس والتنـافس الاسـتعمارى الأوربى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،**
د. السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ **تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمـة يونيو الى نصر اكتوبر ،**
د. رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ **مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونيـة ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ **تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢)،**
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ **تاريخ التجـارة المصريـة فى عصر الحريـة الاقتصـادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ،**
د. أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ـ **مذكرات اللورد كلين ، ج ١ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ **التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ـ **تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،**
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ **معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،**
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ ـ **تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،**
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ج ٢ ،**
نجوى كامل ، ١٩٩٦ .

٩٣ ـ **قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨) ،**
د. نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ، ج ٢ ،**
د. سنهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ ـ **مصر وافريقيا .. الجذور التاريخية الافريقية المعاصرة ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة) ، اعداد وتقديم : د. عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠)،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو

٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،
د٠ ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ ـ هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د٠ محمد سيد محمد

٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) ج ٢ ،
د٠ سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
أ٠ د٠ عبد العزيز صالح ، أ٠ د٠ جمال مختار ،
أ٠ د٠ محمد ابراهيم بكر ، أ٠ د٠ ابراهيم نصحى ،
أ٠ د٠ فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ٠ د٠ عبد العظيم رمضان ٠

١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،
اللواء/ مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء/ عبد الحميد كفافى ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢ ،
د٠ تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره ،
د٠ على بركات

١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢) ،
د٠ فاطمة علم الدين عبد الواحد

١١٥ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٣ ،
أحمـد شفيق باشـا

١١٦ ـ أديب اسحق (عاشق الحرية) ،
عـلاء الدين وحيـد

١١٧ ـ تاريخ القضاء فى مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى

١١٨ ـ النظم المـالية فى مصر والشام زمن سلاطين المماليك ،
د. البيومى اسماعيل الشربينى

١١٩ ـ النقابات فى مصر الرومانية ((دراسة وثائقية))
حسين محمد أحمد يوسف

١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصرى الحديث (١٧٧٥ ـ ١٩٥٢) ،
لويس جرجس

١٢١ ـ الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤) ،
محمد عبد الحميد الحناوى

١٢٢ ـ مصـر للمصـريين ج.٦،
سليم خليل النقاش

١٢٣ ـ السـيد احمـد البدوى ،
د. سعيد عبد الفتاح عاشور

١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن ،
د. محمد نعمـان جلال

١٢٥ ـ مصـر للمصـريين ج ٧ ،
سليم خليل النقاش

١٢٦ ـ مصـر للمصـريين ج ٨ ،
سليم خليل النقاش

١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨) ،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم

١٢٨ ـ معـــارك صحفيـــة ،
جمـــال بدوى

١٢٩ ـ الدين العـام (واثره فى تطور الاقتصـــاد المصـــرى) (١٨٧٦ ـ ١٩٤٣) ،
د٠ يحيى محمد محمود

١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ ـ ١٩٩٧)
سـمير فريـد

١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨)،
تأليف : جايل ماير ، ترجمة : د٠ عبد الرءوف احمد عمرو

١٣٢ ـ دار المندوب الســامى فى مصر ج ١ ،
د٠ ماجدة محمــد محمود

١٣٣ ـ دار المندوب الســامى فى مصر ج ٢ ،
د٠ ماجدة محمــد محمود

١٣٤ ـ الحملة الفرنســية على مصر فى ضـوء مخطوط عثمـانى للدارندلى ،
بقلم : عزت حسن افندى الدارندلى ، ترجمة : جمال سعيد عبد الغنى

١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملوكيـة (فى ضـوء وثائـق الجنيزة) (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د٠ محاسن محمد الوقاد

١٣٦ ـ أوراق يوسـف صـديق
تقديم : أ٠ د٠ عبد العظيم رمضان

١٣٧ ـ تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى
د. محمد عبد الغنى الأشقر

١٣٨ ـ الاخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والارهاب فى مصر ،
السيد يوسف

١٣٩ ـ موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين ،
بقلم : محمد قابيل

١٤٠ ـ سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٢٢٦ ـ ١٢٦٥ هـ/١٨١١ ـ ١٨٤٨ م ،
طارق عبد العاطى غنيم بيومى

١٤١ ـ وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك فى مصر ،
لطفى أحمد نصار

١٤٢ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٤ ،
أحمد شفيق باشا

١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق.م. ،
د. منيرة الهمشرى

١٤٤ ـ كشوف مصر الافريقية فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ،
عبد العليم خلاف

١٤٥ ـ النظام الادارى والاقتصادى فى مصر فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) ،
د. منيرة الهمشرى

١٤٦ ـ المرأة فى مصر المملوكية ،
د. أحمد عبد الرازق

١٤٧ ـ **حســـن البنـــا .**
متى .. كيف .. لمـاذا ؟
د. رفعت الســعيد
١٤٨ ـ **القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية ،**
تأليف : د. سمير فوزى ، ترجمة : نسيم مجلى
١٤٩ ـ **العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر ،**
حسام محمد عبد المعطى
١٥٠ ـ **تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)**
د. سمير يحيى الجمال
١٥١ ـ **جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة ،**
الســيد يوســف
١٥٢ ـ **الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية**
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م ،
د. محاسن محمد الوقــاد
١٥٣ ـ **الحروب الصليبية (المقدمات السياسية) ،**
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٤ ـ **هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الاســلامية فى العصور الوسطى ،**
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٥ ـ **عصر محمــد على ونهضــة مصر فى القرن التاســع عشر (١٨٠٥ ـ ١٨٨٣) ،**
د. عبد الحميــد البطــريق
١٥٦ ـ **تــاريخ الطب والصـــيدلة المصريــة ج ٣ (فى العصر الاســلامى)**
د. سمير يحيى الجمال

١٥٧ ــ تاريخ الطب والصيدلة المصرية فى العصر الاســــلامى والحديث هـ ٤
د . سمير يحيى الجمال

١٥٨ ــ نائب السلطنة المملوكية فى مصر (من ٦٤٨ ــ ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٧ ــ ١٥١٧ م) .
د . محمد عبد الغنى الأشقر

١٥٩ ــ حزب الوفد (١٩٣٦ ــ ١٩٥٢) حـ ١
د . محمد فريد حشيش

١٦٠ ــ حزب الوفد (١٩٣٦ ــ ١٩٥٢) حـ٢
د . محمد فريد حشيش

١٦١ ــ السيف والنار فى السودان
تأليف سلاطين باشا

١٦٢ ــ السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ ــ ١٩٥٣)
د . تمام همام تمام

١٦٣ ــ مصر والحملة الفرنسية
المستشار / محمد سعيد العشماوى

١٦٤ ــ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة « ٢٠ ــ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧ »)
اعداد : أ . د . عبد العظيم رمضان

١٦٥ ــ التعليم والتغيير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر
سامى سليمان محمد السهم

١٦٦ ــ مذكرات معتقل سياسى صفحة من تاريخ مصر
الســيد يوســف

رقم الايداع ١٣٣٢٨/١٩٩٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 6436 — 4

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فـــرع الصحافة

هذا الكتاب يعتبر دراسة قيمة تناولت عدد من المؤرخين المهمين من عصر الموسوعات بالتعريف والتوضيح والتحليل، وبعضهم أهمله التاريخ رغم أهميته مثل محيى الدين الكافيجى، صاحب كتاب «المختصر فى علم التاريخ».

وقد خاض المؤلف فى سيرة هؤلاء المؤرخين بالعرض والتحليل والنقد، وقدم لحياتهم ومؤلفاتهم بمقدمة تاريخية مهمة تناولت الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والعلمية فى عصرهم، مما أثرى هذه الدراسة التاريخية.

٢٧٥ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب